موقف السلطان قلج أرسلان الأول من الحملة الصليبية الأولى
دراسة في علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالحملة الأولى
٤٨٧ ــ ٥٠٠هـ/ ١٠٩٤ ــ ١١٠٧م

أ.د. فؤاد عبد الرحيم الدويكات

قسم العلوم الاجتماعية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة طيبة – المدينة المنورة

موقف السلطان قلج أرسلان الأول من الحملة الصليبية الأولى دراسة في علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالحملة الأولى ٤٨٧ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١٠٧م

أ.د. فؤاد عبد الرحيم الدويكات

قسم العلوم الاجتماعية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة طيبة – المدينة المنورة

تاريخ تقديم البحث: ٢٢/ ٦/ ١٤٤١ هـ تاريخ قبول البحث: ١٢/ ٣/ ١٤٤٢ هـ

ملخص الدراسة:

تختص هذه الدراسة ببيان موقف السلطان قلج أرسلان الأول سلطان سلاجقة الروم من الحملة الصليبية الأولى، وينهض هذا البحث بالنظر في رد فعل السلطان الذي اتسم بالقلق والحذر منذ اللحظة الأولى التي نما لعلمه أخبار الزحف الصليبي نحو بلاده، وتشخيص الجهات التي أوقفت السلطان على أنباء تحركات الحشود الصليبية وأمدته بمعلومات في غاية الأهمية والدقة عن تحركاتهم، ثم تناول البحث الحديث عن الجهود التي بذلها قلج أرسلان لحماية السلطنة من الخطر الصليبي. وفي السياق ذاته أزيح الستار عن عناصر الخطة الدفاعية التي وضعها قلج أرسلان لحماية عاصمته من السقوط بأيدي الصليبيين، ثم تناول البحث بالدراسة والتحليل العمليات القتالية الهجومية التي نفذها قلج أرسلان ضد القوات الصليبية البيزنطية المحاصرة لمدينة نيقية، ثم سلطت الدراسة الضوء على العمليات القتالية التي نفذتها القوات الصليبية ضد نيقية.

فضلاً عن ذلك سعت الدراسة لإبراز ما قام به قلج أرسلان لتعويض خسارته أمام نيقية ومحاولته التصدي للقوات الصليبية البيزنطية في ضوروليوم، لكن هزيمته جعلته يتحول من استراتيجية المواجهة العسكرية إلى سياسة الأرض المحروقة لحرمان الجيوش الصليبية من موارد المناطق التي يمرون بها أملاً في اضعافهم وتكبدهم خسائر فادحة في القوة البشرية. وأخيراً تناولنا بالدراسة والتحليل عوامل الإخفاق والهزيمة.

الكلمات المفتاحية: قلج أرسلان، حروب صليبية، سلاجقة الروم، الصليبيون، البيزنطيون.

The Stance of Sultan Kilij Arslan I towards the 1st. Crusade Expedition: A Study on the Relation of The Rum Seljuk Sultanate and the First Expedition (487-500 H./1094-1107 A.D) ١٠٩٧ ADE)

Prof. Fuaad Abd al-Raheem al-Duwaykat
Dept. of Social Sciences - Faculty of Arts & HumanitiesTaibah Univ.- Al-Madinah Al-Munawarrah. K.S.A.

Abstract:

This study focuses on the stance of the sultan Kilij Arslan I towards the 1st. crusade expedition, especially his cautious and worried reaction from the very beginning when he was acquainted with the news concerning the crusader orientation towards his country. Since his sources informed him with a very important and specific information about the crusaders' moves. This research deals also with the Sultan's efforts to protect the sultanate from the crusade threat. Thus the work disclosed the elements of his defense plan. He proposed to protect his capital from defeat by the crusaders. The study dealt with the analysis of the attacks; that done by Arslan against the Byzantine crusaders, which besieged Nicaea. It sheds light on the fighting operations done by the crusaders against Nicaea.

Moreover, the study highlighted the efforts of Arslan to conpansate his defeat in Nicaea and the confrontation of Byzantine crusaders in Dorolium. His defeat there oriented him to change his strategy from the military option to the policy of the burned land, to deprive the crusader's troops from the recourses of the territories they pass by. That may weaken and cost them massive losses in their man power. Finally the study highlights the factors of defeat through the analytic approach.

key words: Kilij Arslan, Crusades, Rum Seljuks, Crusaders, Byzantine.

المقدمة:

لسلطنة سلاجقة الروم (٤٧٠ -٧٠٨هـ/ ١٠٧٧- ١٣٠٨م) مكانة هامة في التاريخ الإسلامي، باعتبارها أول دولة إسلامية تصدت لجموع الحملة الصليبية الأولى قبل أن تدخل بلاد الشام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م. والأمر المثير للاستغراب أن موقف قلج أرسلان من الحملة الصليبية الأولى يكاد يكون مجهولاً لدى الكثير من المتخصصين في الدراسات الصليبية. وبخاصة فيما يتصل بتفاصيل المواجهات العسكرية الحاسمة التي دار رحاها على جبهات آسيا الصغرى بين سلاجقة الروم بقيادة السلطان قلج أرسلان وبين القوات الصليبية والبيزنطية، وتكمن أهمية هذه المواجهات لما ترتب عليها من آثار سلبية على السلطنة.

فقد تكبد سلاجقة الروم خسائر فادحة في القوة البشرية، وتدهورت السلطنة تبعاً لذلك بعد أن رسخّت أقدامها في آسيا الصغرى، وأفادت بيزنطة من ذلك فأخرجت سلاجقة الروم من السواحل الشمالية الغربية، والسواحل الغربية، والجنوب الغربي من الأناضول، وانكفأ سلاجقة الروم إلى وسط الأناضول.

إن موقف قلج أرسلان من الحملة الصليبية الأولى لم يظفر بما يستحقه من عناية واهتمام المؤرخين العرب؛ ويعود السبب في هذا إلى أن المصادر الإسلامية المعاصرة قد ضنت بالمعلومات والحقائق التي تجلي هذا الموقف، ولعل أخباره لم تصل إليهم أو أنهم لم يدركوا أهميته فأغفلوه.

ونظراً لقلة الدراسات التي تناولت موقف قلج أرسلان من الحملة الصليبية الأولى فقد ارتأيت أن اختص هذا الموضوع بدراسة علمية تفصيلية من منظور متكامل للكشف عن تفاصيله ودقائقه، وعلَّي أن أضيف جديداً أو أوضح بعض جوانبه الغامضة.

وتطلبت الدراسة العودة إلى المصادر التاريخية الأولية لتغطية جوانب البحث، غير أن المصادر الإسلامية ليست كافية للإحاطة بهذا الموضوع، وواقع الأمر أنه يتعذر كتابته دون الاستعانة بالمصادر اليونانية والسريانية والأرمنية واللاتينية التي تناولت بإسهاب موقف قلج أرسلان من الحملة الصليبية الأولى، وميزة هذه المصادر أنها عاصرت الأحداث التي أرخت لها، وكُتِبْت رواياتُها بيد معاصرين أو مشاركين في الأحداث التي كانوا يدونونها، وبذلك فإنها أمدتنا بمادة ذات قيمة علمية معتبرة غطت جوانب البحث.

وأخيراً وضع الباحث خاتمة للدراسة، تضمنت أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

قلج أرسلان الأول وإحياء سلطنة سلاجقة الروم ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م:

ظهر سلاجقة الروم على مسرح الأحداث السياسية داخل الأناضول لأول مرة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، بعد الانتصار الكبير الذي حققه السلاجقة على البيزنطيين في معركة ملاذ كرد

٤٦٣هـ/ ١٠٧١م[١]، حيث عبر هؤلاء إلى الأناضول مؤسسين دولة خاصة بهم عرفت بسلطنة سلاجقة الروم على يد سليمان بن قتلمش (٤٧٠-٤٧٩هـ/ ١٠٧٧- ١٠٨٦م)[٢]، وحين نشب الخلاف سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م بينه وبين تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان (ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) [٣] حول حلب، وانتهى بمقتله تفسخت الوحدة السياسية للسلطنة وتقسمت بين كبار قادته، ذلك أن سليمان بن قتلمش وقبل خروجه على رأس حملته إلى قليقية وأنطاكية عين نائباً عنه في نيقية أبا القاسم وجعل له السلطة العليا على

(١) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت ٥٥٥هـ): تاريخ أبي يعلى حمزة ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق، تحقيق: آمدروز، القاهرة، مكتبة المتنبي، د.ت، ص٩٩؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، مراجعة: محمد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥، ٣٨٨/٨ – ٣٨٩. وملاذ كرد بلدة في الأناضول، تقع شمال بحيرة وان. انظر: موستراس، س: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: عصام الشحادات، بيروت، دار ابن حزم،٢٠٠٢، ص٤٦٨.

(٢) السرياني، مار ميخائيل (ت ٥٩٦هـ): تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة: غريغوريوس شمعون، ط١، حلب، دار ماردين، ١٩٩٦، ١٤١/٣؛ مجهول: تاريخ الرهاوي المجهول، ترجمة: البير أبونا، ط١، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٨٦م، ٦٦/٢؛ ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي (ت ٦٨٥هـ): تاريخ الزمان، ترجمة: إسحق أرملة، ط٢، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦، ص١١٨؛ كومنينا، آنا (ت ٥٤٨هـ): ألِكسياد، ترجمة: حسن حبشي، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤، ص ٣٦-٥١؛ انظر ترجمته في: الذهبي: أعلام النبلاء، ١٨/ ٤٤٩.

(٣) انظر ترجمته في: أعلام النبلاء، ١٩/ ٨٣- ٨٥.

أمراء دولته[١]، ولما ذاع خبر مقتله في الأناضول استقل أمراء السلطنة كل بما تحت يده[٢].

بعد وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) [٣] اندلعت المنازعات على العرش بين أمراء البيت السلجوقي، ولما تولى بركياروق الحكم (٤٨٧- ٤٩٨هـ/ ١٠٩٤- ١١٠٤م) [٤] أطلق سراح قلج أرسلان داود الأبن الأكبر لسليمان بن قتلمش، بسبب خلافه ونزاعه مع عمه تتش- الذي نازعه السلطة-؛ فقاد جيشاً من الناوكية[٥] في هذه السنة ٤٨٧هـ/

(١) كومنينا: ألِكسياد، ص٢٥٤؛ السرياني: تاريخ ميخائيل، ١٥٣/٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١١٩. ولم نعثر لهذا النائب على ترجمة في المصادر التي اطلعنا عليها، وأشارت اليه المؤرخة البيزنطية كومنينا بكنيته دون أن تذكر اسمه.

(٢) كومنينا: ألِكسياد، ص٢٥٦.

(٣) هو جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة العظام. عنه انظر: ابن خلكان، شمس الدين احمد بن
محمد(ت٦٨١هـ):وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، بيروت، دار صادر،١٩٧٧، ٢٨٣/٥-٢٨٩.

(٤) وهو خامس السلاطين السلاجقة العظام. عنه انظر: أعلام النبلاء،١٩٥/١٩-١٩٦.

(٥) الناوكية: وهم جماعات من الفرسان من قبائل الغز التركية المقاتلين بالسهام على الخيول، انشروا في الأقاليم الحدودية للمشرق الإسلامي مثل: أذربيجان وأرمينيا وديار بكر والثغور البيزنطية، ودان هؤلاء بالطاعة لآل قتلمش الزعماء التاريخيون المعترف بهم للغز الناوكية. انظر: عقلة، عصام مصطفى: الناوكية في بلاد الشام دراسة في التسمية والأصل والعلاقة بالغز العراقية وبالدولة السلجوقية، بحث منشور في المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، سنة ٢٠١٢، مجلد: ٦، العدد: ٢، ص ٣٩ -٤٠، ٤٥ -٤٦.

١٠٩٤م وذهب إلى الأناضول، فأعاد السيطرة على معظم المناطق التي كانت تخضع لوالده[١]، وتابع زحفه شمالاً وصولاً إلى نيقية، فرحب به الأتراك ونصبوه سلطاناً عليهم[٢]، وبذلك أُعيد إحياء سلطنة سلاجقة الروم وتثبيتها ثانية.

أراد قلج أرسلان أن يجتاز بدولته مرحلة الضعف والتفكك إلى عهد جديد، وتطلب تحقيق هذا الهدف إجراء إصلاحات واسعة، فأعاد تنظيم إدارته المركزية، وأحل أنصاره والمقربين إليه محل الأمراء والقادة القدامى، فعزل الأمير بولداق وتسمية المؤرخة البيزنطية كومنينا (Comnena) – بولخانيس– شقيق الأمير أبي القاسم الذي كان يدير شؤون نيقية قبل وصوله، وعين مكانه أخيه محمداً الذي أصبح كبير نوابه[٣]، ونظم إدارة الولايات والأقاليم وعين فيها الولاة[٤]، فضلاً عن عنايته بالجيش وتعيين قادته العسكريين للدفاع عن الدولة[٥]، ثم مضى في إصلاح النظم الضريبية لتوفير

---

(١) سبط بن الجوزي، يوسف بن قز أوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان حوادث (٤٩٧ – ٥١٧هـ)، تحقيق: مسفر الغامدي، ط١، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٨٧، ٢/ ٤٤٣– ٤٤٤.

(٢) كومنينا: أَلِكسياد، ص٢٦٦.ونيقية(إزنيق الحالية) مدينة في الأناضول على ضفاف بحيرة نيقية. انظر: موستراس: المعجم الجغرافي، ص٥٤.

(٣) كومنينا: أَلِكسياد، ص٢٦٦.

(٤) كومنينا: أَلِكسياد، ص٢٦٦.

(٥) كومنينا: أَلِكسياد، ص٢٦٦.

الموارد المالية، لتمكينه من تحقيق غايته بالنهوض وتجاوز مرحلة الضعف، فأعاد ضريبة الخراج؛ وشملت هذه الضريبة سكان السلطنة بصرف النظر عن الدين، باعتبارها ضريبة يؤديها من يستثمر الأرض الخراجية(١)، كما وضع الجزية على أهل الذمة، وتم جباية هذه الضرائب من العاصمة وسائر أقاليم السلطنة لتغطية نفقات الدولة(٢).

أدرك قلج أرسلان أهمية بلاده من الناحية التجارية باعتبارها ملتقى لطرق التجارة البرية بين الشرق والغرب(٣)، ومنها مرت بضائع الهند والصين إلى أوروبا، كما كانت أيضاً ملتقى لطرق التجارة بين الشمال والجنوب ومنها عبرت تجارة الرقيق من روسيا عبر البحر الأسود إلى أوروبا(٤)، ففرض رسوماً

---

(١) ويندوفر، روجر: ورود التاريخ، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دمشق، الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية، ٢٠٠٠، ٣٩/ ٣٣.

(٢) الصوري، وليم: تاريخ الحروب الصليبية: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ٢٣١/١؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩ /٣٣.

(٣) رمضان، محمد أحمد: حول وسائل الصراع المسلح الإسلامي الصليبي في العصور الوسطى، بحث منشور في مجلة المستقبل العربي، سنة ١٩٨٧م، مجلد: ١٠، العدد: ١٠٢، ص٦٥؛ للاستزادة عن الطرق التي كانت تجتاز آسيا الصغرى يراجع: =
-Ramsay, W. M., The Historical Geography of Asia Minor, A. M. Hakkert, 1962, P.P. 74- 82.

(٤) بردج، أنتوني: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد غسان سبانو، ط١، دمشق، دار قتيبة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م، ص٢٧.

كبيرة على مرور التجارة عبر أراضيه. وليس أدل في هذا المجال من رواية المؤرخ الصليبي وليم الصوري (William of Tyre) والتي تفرد بها عن غيره من المؤرخين، تقول: "أن وكلاءه المعتمدون كانوا يتمركزون على مرأى من القسطنطينية نفسها حيث تولوا جباية الضرائب والرسوم من المارين"[١].

وهذا النص يظهر بوضوح انتعاش تجارة العبور، وانعكاسها إيجاباً على الأوضاع الاقتصادية للسلطنة في هذه الفترة المبكرة من تاريخ قيامها، محققة بذلك نوعاً من السيادة السياسية، ومضيفة موارد مالية كبيرة لخزينة الدولة.

ما لبث انتعاش السلطنة وازدهارها سياسياً واقتصادياً أن مكنته من إنجاز عمل معماري كبير حيث أعاد تجديد عاصمته وتقوية استحكاماتها[٢]، وأشادت المصادر اللاتينية المعاصرة للحملة الصليبية الأولى بحصانة المدينة،-وهو ما سنفصله لاحقاً- وتُظهر دراسة تلك النصوص العناية التي أولاها السلطان للمدينة واهتمامه بتحصينها حصانة تفوقت بها على سائر مدن آسيا الصغرى، ولعلي لا أجانب الحقيقة إذا ما قلت بأن المدينة باتت على درجة من المنعة والقوة بحيث استحقت عن جدارة أن تسمى «قسطنطينية سلاجقة الروم»[٣].

على الصعيد الخارجي، واجه السلطان مشاكل عديدة في تعامله مع القوى السياسية المحيطة به، وفي مقدمتها الإمبراطورية البيزنطية ومحاولاتها

---

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣١.

(٢) توران، عثمان: الأناضول في عهد السلاجقة والإمارات التركمانية، ترجمة: علي محمد الغامدي، ط١، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٩٧، ص١١.

(٣) أطلق الباحث هذا الاسم على المدينة بالنظر لقوة تحصينها ومناعة استحكاماتها.

الرامية لاستعادة الأقاليم التي فتحها سلاجقة الروم إلى حظيرة الإمبراطورية. لكن قلج أرسلان استطاع التصدي لبيزنطة، ومنعها من الاستقرار وتوطيد نفوذها على الشواطئ الشرقية لبحر مرمرة[١], ويندرج ضمن سياسة المواجهة انضمام قلج أرسلان لتحالف الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى بزعامة أمير أزمير جكا وتسميه المؤرخة كومنينا «تزاخاس» «Tzachas» (٤٧٤-٤٨٨هـ/ ١٠٨١- ١٠٩٥م) مدفوعاً برغبته بالاستيلاء على القسطنطينية وتولي عرش الإمبراطورية[٢], لكن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (Alexios Comnenus) (٤٧٤- ٥١٢هـ/ ١٠٨١- ١١١٨م) اتخذ من التدابير ما ضمن فصم عرى التحالف، وفي هذا السياق أكدت المؤرخة أَنّا كومنينا بأن والدها رأى أن إتمام هدفه يتطلب العمل على إثارة القلاقل بين تزاخاس والسلطان[٣]، فأرسل كتاباً إلى السلطان خوفه فيه من طموح جكا وأنه يشكل خطراً على سلطنته[٤]، ونجح الكسيوس بما اشتهر به من مكر وخداع في تحقيق هدفه، وقتل الأمير جكا أثناء حضوره لوليمة أعدها له قلج أرسلان[٥]، ولم تحدد المؤرخة كومنينا تاريخ هذه الحادثة، ويفهم

(١) توران: الأناضول في عهد السلاجقة، ص١١.

(٢) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٤٥؛ رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٩٧، ١١٩/١.

(٣) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٥١.

(٤) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٥١ -٣٥٢.

(٥) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٥٢- ٣٥٣.

من سياق الأحداث أن ذلك كان سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، إذ أعقبها بحسب رواية كومنينا توقيع معاهدة بين الإمبراطور والسلطان[١]، مكنته من التحرك شرقاً لمحاصرة مدينة ملطية في هذه السنة [٢]، وكان اهتمام قلج أرسلان منصباً على توطيد نفوذه في شرق آسيا الصغرى وإخضاع بقية الإمارات التركية لنفوذه، لكنه ما لبث أن قفل عائداً إلى عاصمته لحماية بلاده من الخطر الصليبي الذي أطل برأسه من الغرب.

سلطنة سلاجقة الروم والحملة الصليبية الأولى:

– زحف الحشود الصليبية واستعدادات المواجهة من جانب السلطان:

ترامت لمسامع السلطان قلج أرسلان أنباء زحف الجموع الصليبية الضخمة وتصميمهم على اجتياح بلاده، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تأريخ محدد للوقت الذي علم به السلطان أنباء التحرك. فالمؤرخ ميخائيل السرياني يجعلها في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م[٣]، لكن ميخائيل لم يكن دقيقاً في هذا التحديد، لأن السلطان قلج أرسلان كان في هذه السنة ما يزال في أسر السلطان ملكشاه الذي توفي ليلة الجمعة، شوال ٤٨٥هـ/ نوفمبر

(١) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٥٣.

(٢) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٢٢. وملطية: مدينة تقع بالقرب من معبر الفرات إلى جبال طورس. انظر: لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية،ترجمة: بشير فرانسيس، كوركيس عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ص١٥٢.

(٣) السرياني: تاريخ ميخائيل، ٣/ ١٦٠.

١٠٩٢م[١]، أما المؤرخ ابن القلانسي الذي كان معاصراً للحدث فيجعلها في سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م[٢]، إلا أن المرجح أن تكون الأنباء بلغته سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م وهو يحاصر ملطية، فأثارت الشعور بالقلق والحذر، فأصدر أوامره إلى قواته بالانسحاب من ملطية والعودة إلى بلاده، وحسب تعبير المؤرخ ابن العبري «وذلك حينما بلغه قدوم الفرنجة هذه السنة»[٣].

لكن السؤال الذي يواجه الباحث هنا: من هي الجهة التي أعلمت قلج أرسلان بأن جيوشاً من الصليبيين تشق طريقها إليه؟

إننا إذا أمعنا النظر في المصادر العربية، فسوف نلحظ أن الإمبراطور البيزنطي هو الذي أخبره بذلك من خلال الرسالة التي انفرد المؤرخ العظيمي بالإشارة إليها سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م وجاء فيها: "كتب ملك الروم ألكسس إلى المسلمين يعلمهم بظهور الفرنج"[٤]، من غير أن ينص صراحة على الجهة التي كتب إليها الإمبراطور، لكننا- ومن سياق الأحداث- نستطيع أن نجزم بأن قلج أرسلان هو الجهة التي كتب إليها محذراً. وأحسب أن الإمبراطور

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٤٨١ -٤٨٤ ؛ خواندمير، محمد بن خاوندشاه (ت ٩٠٣هـ): روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة: أحمد عبدالقادر الشاذلي، ط١، القاهرة، الدار المصرية للكتاب، ١٩٨٨، ص ٢٤٤.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٤.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٢٢.

(٤) العظيمي، محمد بن علي الحلبي (ت ٥٥٦هـ): تاريخ حلب، تحقيق: إبراهيم زعرور، دمشق، د.ت، ١٩٨٤، ص٣٥٨.

كان جاداً حين أرسل لسلاجقة الروم يعلمهم بأنباء الزحف الصليبي، فقد كان على دراية تامة بما يجري في الغرب الأوروبي من إعداد للحملة الصليبية وموعد رحيلها، وتخوف من نوايا الصليبيين وأهدافهم الحقيقية[١]، معتقداً أن غرضهم خلعه عن العرش والاستيلاء على الإمبراطورية، وهو ما نصت عليه ابنته صراحة في تاريخها[٢]، ويبدو أن غايته من مكاتبتهم حتى يكونوا على بينة من الأمر، فقد تلجئه الضرورة الملحة للاستعانة بهم على قتالهم إذا قضت الضرورة بها[٣]، وأشارت المصادر اللاتينية لذلك تلميحاً لا تصريحاً من خلال تأكيدها حصول قلج أرسلان على معلومات دقيقة عن زحف الحشود الصليبية صوب بلاده، يقول وليم الصوري بهذا الصدد أن قلج أرسلان استبد به القلق عندما سمع أن قواتنا كانت قادمة[٤]، من غير أن يوضح المصدر الذي سمع منه، ويشير المؤرخ أوردريك ڤيتالس (Orderic Vitalis) أن قلج أرسلان سمع ذلك من مصادر موثوقة[٥]، من غير أن يزيح الستار عنها، وهو أمر جدير بالملاحظة.

---

(١) كومنينا: ألِكسياد، ص٣٨٧.

(٢) كومنينا: ألِكسياد، ص٣٩٠ ، ٣٩٢.

(٣) كومنينا: ألِكسياد، ص٣٨٧.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ١٨٧.

(٥) ڤيتالي، أوردريك: التاريخ الكنسي، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دمشق، دار التكوين للطباعة والنسر، ٢٠٠٨، ص٣١.

لم يركن قلج أرسلان إلى جهة بعينها لتقصي أخبار زحف الحشود الصليبية، وإنما بذل قصارى جهده في هذا الجانب. معتمداً على جهاز استخباراته الذي أداره بكفاءة كبيرة بحيث وفر له معلومات دقيقة عن تحركات الحشود الصليبية، وفي معرض حديثه عن الاستخبارات السلجوقية أشاد المؤرخ البيزنطي كيناموس (Kinnamos) بما كانوا عليه من قدرات استطلاعية بارزة(١)، ويمكن القول أن قلج أرسلان نجح بفضل كفاءة استخباراته باجتذاب قبائل البشناق والكومان التركية في البلقان والدانوب الأدنى لجانبه لموافاته بتحركات الحشود الصليبية(٢)، ولا غرابة في ذلك، فالمؤرخ رنسيمان (Ranciman) يحدثنا في هذا الصدد كيف أن قبائل الكومان بزعامة يوسف تارخانيوتس (Tarchaniotes) العاملة في الجيش البيزنطي انحازت في الليلة السابقة على معركة ملاذكرد إلى جانب إخوانهم السلاجقة لكونهم أتراك(٣)، كذلك سردت لنا كومنينا في تاريخها تحالف قبائل البشناق في البلقان (٤٨٣- ٤٨٤هـ/١٠٩٠-١٠٩١م) مع أمير أزمير جكا ضد بيزنطة، ووضعت خطة مشتركة لهجوم الأتراك والبشناق على القسطنطينية،

(١) Kinnamos, J:Deeds of Johan and Manuel Comnenus, Tr: Brand. M, New york 1976, P.47.

(٢) للاستزادة عن هذه القبائل يراجع: بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ١٢٠ -١٢١.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ٩٧/١ – ٩٨.

لكن بيزنطة شقت طوق ذلك التحالف[١]، ويبدو أن سلاجقة الروم أفادوا من الظروف السياسية السائدة في البلقان آنذاك، لكون السواد الأعظم من قوات القادة والولاة وحكام المدن البيزنطية كانوا من البشناق المأجورين[٢].

عرف قلج أرسلان من الأخبار التي بلغته عن ضخامة الحشود الصليبية مبلغ الخطر المحدق به، وإذ أيقن أن ليس باستطاعته الوقوف وحده أمام تلك القوات، فقد ارتأى أن يبادر بطلب النجدات من أمراء المشرق الإسلامي للدفاع عن ممتلكاته، يتضح ذلك من رواية ابن القلانسي المعاصر للحدث، يقول: "شرع في الجمع والاحتشاد وإقامة مفروض الجهاد واستدعى من أمكنه من التركمان للإسعاد عليهم والإنجاد فوافاه منهم مع عسكر أخيه العدد الكبير وقويت بذلك نفسه واشتدت شوكته"[٣]، وتتشابه رواية المؤرخ الصليبي وليم الصوري في هذا الجانب مع رواية ابن القلانسي، فيذكر: "بأن قلج أرسلان رحل إلى الشرق قبل وقت طويل سبق قدوم هذه القوات لالتماس العون من حكام تلك البلاد ضد حشود المسيحيين المتقدمة، وكان قد استدرج إلى جانبه عدداً كبيراً من الأتراك من بلاد فارس ومن الأراضي المتاخمة لها"[٤]، لكن هناك تفاصيل مهمة في رواية المؤرخ وليم الصوري لم

---

(١) كومنينا: أَلِكسياد، ص٢٩٤ -٣٠٨، ص٣٢٠- ٣٢٨.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ١/١٨٤ -١٨٥؛ زابوروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، ترجمة: الياس شاهين، ط١، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦، ص٦٩.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٤.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ١٨٧.

يتطرق إليها ابن القلانسي وتشير للمزيد من مصادر المعلومات، وقد وقفنا من دراستنا لهذه الرواية على السياسة التي انتهجها لاجتذاب مزيد من القوات الإسلامية إلى جانبه، حيث يذكر: "أنه استدرج إلى جانبه عدداً كبيراً من الأتراك... وذلك بوساطة الأقوال المقنعة والتوسلات الملحة العديدة، وطبعاً ليس بدون التخلي عن المال أيضاً، وقد أمل بمساعدة من هؤلاء الناس أن يكون قادراً على حماية نيقية والمنطقة بأسرها من الخطر الذي تهددها"(١). وتتطابق رواية ألبرت فون آخن (Albert Von Achene) المنبئة عن الحدث نفسه والتي استمدها من شاهد عيان دون ملاحظاته أولاً بأول. مع ما أورده ابن القلانسي ووليم الصوري، ومؤداها، أن قلج أرسلان عندما سمع بوصول الصليبيين نادى على الأتراك في آسيا الصغرى اليونانية، ومملكة فارس، وانفرد بتحديده لعدد القوات التي جمعها – فتجمع لديه خمسة عشر ألف مقاتل– من الرجال الخبراء في الحرب مزودين بالسيوف والسهام(٢)، إن هذه النصوص تؤكد إدراك السلطان لعظم الخطر الصليبي المحدق به، ثم. وهو الأهم. حسن إعداده للمعركة القادمة.

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ١٨٧، ٢٣٠.

(٢) آخن، ألبرت فون: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دمشق: الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٠٠٧، ٥١/ ٢٣-٢٤.

عبور قوات الحملة الصليبية الأولى آسيا الصغرى:

– حملة العامة:

عبرت جموع الغوغاء – حملة العامة–[١] مضيق البسفور في السادس من أغسطس (آب) ١٠٩٦م/٤٩٠هـ، ونزلت في قاعدة عسكرية بيزنطية قديمة على الساحل الجنوبي لخليج نيقوميديا وتسميها المصادر البيزنطية كيبوتس (Kibotes)[٢]، بينما تذكرها المصادر اللاتينية بـ «سيفتوت»(Civitot) [٣]، في ضواحي بلدة هيلينوبوليس (Helenopolis) قرب البسفور[٤]، وتبعد نحو ٣٥كم شمال غرب مدينة نيقية[٥]، وقد وقع الاختيار على هذا الموقع لتعسكر فيه الحشود الصليبية لأهميته الاستراتيجية ولسهولة تزويده بالمؤن بحراً من القسطنطينية[٦].

---

(١) جموع شعبية ضخمة قادها بطرس الناسك ووالتر المفلس وغيرهم، وجاءت مشاركة هؤلاء في الحملة الصليبية الأولى بفعل الظروف القاسية التي كان يعيشها هؤلاء في غرب أوروبا في تلك الفترة. انظر: عاشور: الحركة الصليبية، ١/١٠٨-١١١.

(٢) كومنينا: ألِكسياد، ص٤١٥.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/١٨٦؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/٢٠.

(٤) كومنينا: ألِكسياد، ص٣٩٠.

(٥) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص٥٨.

(٦) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة: حسن حبشي، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٨، ص٣٣؛ الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة إلى القدس (١٠٩٥-١١٢٧م)، ترجمة: زياد العسلي، ط١، عمان: دار الشروق، ١٩٩٠، ص٤٦ -٤٧؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ص٢٢.

تصادف عبور هذه الحشود مع ارتحال قلج أرسلان إلى المشرق لطلب النجدات الإسلامية، الأمر الذي أُسيئ تفسيره من جانب العديد من المؤرخين المحدثين وانحصر ذلك في رأيين: الأول: ويشير فيه أحد الباحثين بأن قلج أرسلان حين عبرت حملة بطرس الناسك إلى آسيا الصغرى كان يحارب ضد إمارة الدانشمند[١]مسنداً رأيه للمؤرخ ابن الأثير[٢]. وبالعودة إلى ابن الأثير لم نجد ذكراً لهذا الخبر.

أما الرأي الثاني وهو الأنكى، فيزعم بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين، وتابعهم على ذلك عدد من الباحثين العرب[٣]، أن قلج أرسلان حين عبرت جموع الحملة الصليبية النظامية إلى آسيا الصغرى كان غائباً عن عاصمته حيث ذهب إلى الحدود الشرقية لينازع أمراء الدانشمند السيادة على مدينة

---

(١) إمارة الدانشمند: إمارة تركية تأسست في الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى على يد الأمير شمس الدين كمشتكين احمد بن علي سنة ٤٧٧هـ/١٠٨٤م. انظر: المحيميد، علي بن صالح: الدانشمنديون وجهادهم في بلاد الأناضول، الإسكندرية، ١٩٩٤،ص٣٧.

(٢) مرسي الشيخ، محمد: حملة بطرس الناسك الصليبية في ضوء كتابات أنا كومنينا، بحث منشور في مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود، سنة ١٩٧٨، العدد:٢، ص ٣١٦.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٥٠- ٢٥١؛ زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص٧٤؛ ماير، هانز: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد غانم، ط١، طرابلس الغرب، مجمع الفاتح للجامعات، ١٩٩٠، ص٨٠؛ عاشور، سعيد عبدالفتاح: الحركة الصليبية، ط٦، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٦، ص ١٢٧ – ١٢٨؛ طقوش، محمد: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ط١، بيروت، دار النفائس،٢٠٠٢، ص٨١-٨٢.

ملطية في أرمينية الغربية، مستندين بحسب زعمهم لرواية المؤرخ الأرمني متى الرهاوي[١]، أما بالنسبة للواقع التاريخي فإننا لم نقف على ما يؤيد هذا الزعم، وبالعودة إلى متى الرهاوي تبين لنا أنه لم يتحدث عن ذهاب قلج أرسلان إلى الحدود الشرقية لمنازعة أمراء الدانشمند السيادة على ملطية، وإنما وردت روايته في كتابه بهذا الشكل: "قام الفرس –سلاجقة الروم– حينئذ بالتجمع، وهاجموا معسكر الصليبيين، ولكن النصر كان حليف الصليبيين، .... وسيطروا على نيقية بقوة السلاح... أن هزيمة الفرس هذه جعلتهم يتوجهون بطلب النجدة من السلطان قلج أرسلان الذي كان يقيم في مقر حكمه في ملطية، وأخبروه بهزيمتهم، فحشد هذا الأمير قوات لا تعد ولا تحصى، وخرج بها لمواجهة الإفرنج في مقاطعة نيقية"[٢]، وعليه فإنه من غير الممكن الاستناد إلى هذا النص للتسليم بهذه المزاعم. الأمر الذي يطرح على بساط البحث إشكالية خروج المؤرخ على مستلزمات البحث العلمي، وعبثه الصريح بالنصوص التاريخية، حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته وأغراضه السياسية دون أن يعبأ بالأمانة العلمية والموضوعية، وألا فإين ما أشار إليه رنسيمان في هوامشه عن وصف متى الرهاوي لهجوم قلج أرسلان على ملطية، وأنه كان منصرفاً إلى أمورها، حينما هاجم الفرنج نيقية.

---

(١) الرهاوي، متى(ت ٥٣٩ هـ): تاريخ متى الرهاوي، ترجمة: محمود الرويضي، عبدالرحيم مصطفى، ط١، أربد، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، ٢٠٠٩، ص ٦٩ –٧٠.

(٢) الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص٦٨– ٧٠.

من ناحية أخرى، يحضرنا ونحن نعرض لتفنيد هذه المزاعم ما أوردته المصادر اللاتينية في هذا الصدد. فقد ذكر المؤرخ وليم الصوري، بأن جيوش الحملة النظامية حين عبرت البسفور كان قلج أرسلان يقف متريثاً في الجبال المجاورة التي لم تكن تبعد أكثر من عشرة أميال عن جيشنا، ومعه الحشد الذي كان قد جمعه بكثير من الجهد، وينتظر فرصة موائمة لمهاجمة قواتنا دون إلحاق خطر به، وأمل بهذه الوسيلة أن ينقذ المدينة من الخطر الناجم من هذا المصدر(١)، وفي موضع آخر من كتابه ونقلاً عن السلطان في رسالته لأهل نيقية، نقرأ هذه العبارة: "أني مرابط مع قوة كبيرة من الرجال في المنطقة المجاورة"(٢).

مكثت جموع حملة العامة قرابة شهرين في معسكر «كيبوتس»(٣)، وتمتعوا بالراحة بعد حصولهم على المؤن اللازمة من الإمبراطور، ووفقاً للمصادر اللاتينية فقد كان في المعسكر وفرة من كل شيء خاصة المؤن(٤)، وفضلاً عن ذلك وصلت بناءً على أوامر الإمبراطور سفن محملة بالمؤن بيعت لهم بأسعار

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣١.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٢.

(٣) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٢٢؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١٨٦/١؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٢١/٣٩.

(٤) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٢٢؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١٨٦/١؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٢١/٣٩.

رخيصة[١]، لكن هؤلاء الغوغاء الذين مردوا على السطو والنهب، كالأنعام السائبة لا يعقلون شيئاً فإذا لاح مغنم طاروا وراءه، والباعث على ذلك من وجهة نظر المؤرخ وليم الصوري الوفرة في المؤن والفراغ[٢]،

زحفت هذه الجموع إلى ضواحي مدينة نيقية يعيثون فساداً، وسلكوا مع أهلها مسلكاً مزرياً، فقد قطعوا بعض الأطفال الرَّضع إرباً وأجلسوا آخرين على الخوازيق الخشبية وألقوا بهم في النار، أما الشيوخ والعجزة فأنزلوا بهم شتى صنوف العذاب، ولما علم سكان نيقية بهذه الجرائم خرجوا من مدينتهم ونشبت معركة حامية الوطيس حارب فيها الطرفان بضراوة لكن السكان ارتدوا إلى داخل مدينتهم، فعاد هؤلاء أدراجهم إلى معسكرهم حاملين معهم الغنائم التي نهبوها[٣].

حاول بطرس الناسك الذي حيكت الأساطير حول فصاحته وإثارته للمشاعر، وتأثيره الفائق على مستمعيه، أحكام سيطرته على هذه الجموع المنفلتة، لكنه أخفق في مهمة القيادة التي لم يكن يصلح لها مطلقاً، فعاد أدرجاه إلى القسطنطينية[٤].

---

(١) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٢٢.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ١٨٦.

(٣) كومنينا: ألِكسياد، ص٣٩١. للاستزادة يراجع: ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٢٢- ٢٣؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١٨٦/١؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٢٠/٣٩ -٢١.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص٢١؛ توديبود، بطرس: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة: حسين عطية، ط١، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨، ص٦٤.

انتهزت فرقة فرنسية قوامها سبعة آلاف راجل، وانضاف إليهم ثلاثمائة فارس مغادرة بطرس الناسك للمعسكر، وهاجمت ضواحي نيقية غير مبالين باعتراضات الآخرين، فأصابوا غنيمة من المواشي وعادوا بها إلى معسكرهم(١)، فسال لعاب جماعة من الألمان، وقرروا نهب ضواحي نيقية أسوة بما فعله الفرنسيين، فزحف ثلاثة آلاف راجل وخمسمائة فارس بقيادة شخص يدعى رينالد. وجاء رد فعل السلطان على هذه الجرائم عنيفاً، إذ استدرجهم إلى الكمين الذي نصبه لهم، وحاصرهم في قلعة أكسيرجوردن (Xerigordon) قرب نيقية(٢)، وبحسب رواية وليم الصوري فإن القوات السلجوقية أعملت فيهم قتلاً بحيث لم يبق منهم أحد على قيد الحياة(٣). ما لبثت أنباء تلك المذبحة أن وصلت إلى المعسكر الصليبي في سيفتوت، فتنادوا للثأر لرفاقهم الألمان، وتقدمت القوات الصليبية نحو نيقية، وكان قلج أرسلان يقظاً سريع الحركة متوقعاً ذلك، ما كاد يصله نبأ تحركهم حتى لجأ إلى خطة محكمة للإيقاع بهم، وتخير من المواقع ما رآه ملائماً لنصب الكمائن، من غير

(١) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص١٩؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١ /٢٢ – ٢٣؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ١٨٥؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩ /٢١.

(٢) كومنينا: ألِكسياد، ص٣٩١؛ مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص٢٠؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص٦١ –٦٣.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ١٨٧.

أن يعلموا بها آملاً من ذلك القضاء عليهم[١]. وأذاع في المعسكر الصليبي إشاعة مفادها أن القوة الصليبية سيطرت على نيقية، وأنهم بصدد اقتسام الغنائم، فاضطرب المعسكر وطالب الجيش بالزحف حتى لا يفوتهم نصيبهم من الغنيمة، وتحركوا على نحو فوضوي فجر الحادي والعشرين من أكتوبر (تشرين أول) ١٠٩٦م/٤٩٠هـ، من غير أن يتخذوا الترتيبات التي ينبغي اتخاذها من جانب خارجين مثلهم للحرب، وعند قرية دراكون وقع الجيش الصليبي في الكمائن التي نصبها سلاجقة الروم، وتعرضوا لمذبحة كبيرة[٢]، وقد حملت المؤرخة البيزنطية أَنَّا كومنينا بطرس الناسك مسؤولية ما حل بالجيش الصليبي من إبادة لعدم سماعه نصائح الإمبراطور، من جانبه سعى بطرس للتنصل من المسؤولية وألقى بالتبعية على رجاله ووصفهم بأنهم لصوص وقطاع طرق ولا يستحقون الخروج من أجل المسيح أو التعبد في كنيسته المقدسة[٣].

فيما انحى وليم الصوري باللائمة على الجنود الصليبيين غير المنضبطين الذي أدى بهم الطيش إلى هذه الإبادة الشاملة[٤]، وبذلك نجح سلاجقة

(١) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٩١.

(٢) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٩١ -٣٩٢؛ أجيل، ريموند: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين عطية، ط١، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص٧٨ – ٧٩؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص٦٣ -٦٤.

(٣) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٩٢.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ١٨٦.

الروم في إبادة الحملة العامة وتشتيت شملها وحماية بلادهم من عبثهم وفسادهم.

– الحملة النظامية:

كانت الحرب الصليبية مشروعاً بابوياً لتحقيق أهداف خاصة بالكنيسة اللاتينية، وأرادت بيزنطة أن تفيد من هذا المشروع ضمن ضوابط محددة تراعي ظروفها ومصالحها بالدرجة الأولى، وإذا كان الهدف النهائي للحرب الصليبية من وجهة نظر البابوية إنقاذ القبر المقدس من أيدي الكفار (المسلمين) ووضع الأراضي المقدسة تحت سيطرة المسيحيين الكاثوليك[١]، فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تشارك الصليبيين هذا الهدف، وإنما كان استعادة البلاد التي استولى عليها سلاجقة الروم إلى حظيرة الإمبراطورية هو الهدف الرئيس الذي ناضلت في سبيل تحقيقه بكل الوسائل[٢]، ولما كان الجانبان يدركان اختلاف أهدافهم وتضارب مصالحهم، فقد استلزم ذلك التقريب بينهما في المواقف حتى يحقق كلاً منهم غايته.

ولما كانت القوات الصليبية لا تستطيع عبور آسيا الصغرى إلى بلاد الشام دون أن تمد لها بيزنطة يد العون والمساعدة، وهو ما عبر عنه المؤرخ فوشيه الشارتري (Fulcher of Chartes) بقوله: "كان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الإمبراطور إذ لم يكن باستطاعتنا دون مساعدته ومشورته

(١) للاستزادة يراجع: الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٢ – ٢٤٤.

(٢) كومنينا: ألِكسياد، ص٤٠٢ – ٤٠٤، ٤١٠.

أن نقوم بهذه الرحلة"[١]، فإنها لم تجد غضاضة بمساعدة الإمبراطور لتحقيق هدفه، وبعد مناورات شاقة توصل الجانبان لاتفاق بمقتضاه أقسم أمراء الحملة الصليبية يمين الولاء بإعادة جميع الأقاليم التي كانت تابعة من قبل للإمبراطورية ويتم تخليصها من السلاجقة إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية، مقابل تعهد الإمبراطور الكسيوس بإمداد الصليبيين بالمؤن والعتاد والمرشدين الذين يقودوهم عبر مسالك ودروب آسيا الصغرى إلى الشام[٢].

في ضوء المعطيات السابقة، يمكن القول أن الاتفاقية الصليبية – البيزنطية استهدفت تحطيم السيادة السياسية لسلطنة سلاجقة الروم في الأناضول ليحقق كل منهم غايته. ولم يغب عن قلج أرسلان حقيقة نواياهم ومطامعهم في الاستيلاء على بلاده، وقد أطلعنا المؤرخ ڤيتالس على رواية لا نجدها في المصادر الأخرى، كشفت صراحة عن دافع بوهيمند (Bohemond) من المشاركة في الحروب الصليبية، تقول: بعدما هزم قلج أرسلان الفرنجة – حملة العامة– سمع في اليوم التالي– ٢٢ أكتوبر ١٠٩٦م/٤٩٠هـ– وعلم من مصادر موثوقة بأن الدوق قد دخل إلى أراضي الإمبراطورية في مقدونيا، وأن معه قوة مسلحة ضخمة من النورمانديين والأبوليين، وأنه عازم على الانتقام من الأتراك، لسفكهم دماء الصليبيين[٣]. فهذا النص يكشف حقيقة دوافعه

(١) الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٥.

(٢) كومنينا: أليكسياد، ص٤٠٢؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٢.

(٣) ڤيتالي: التاريخ الكنسي، ص٣١.انظر ترجمة بوهيمند عند الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/٢١١-٢١٢.

الشخصية ويفسر رغبته في الانتقام من سلاجقة الروم، لمشاركة قواتهم إلى جانب بيزنطة في حربها ضد النورمان (٤٧٤- ٤٧٦هـ/ ١٠٨١-١٠٨٣م)، وكان قلج أرسلان آنذاك ولياً لعهد والده السلطان سليمان[١]، وأرسل الإمبراطور إلى السلطان سليمان ملتمساً مساعدته بقوة عسكرية لمقاومة النورمان، فأمده بقوة بلغ تعدادها سبعة آلاف مقاتل، تمكن بفضلهم من تحقيق الانتصار، وتجرع بوهيمند مرارة الهزيمة أوائل ديسمبر (كانون أول) ١٠٨٣م/٤٧٦هـ [٢]، فتاقت نفسه للانتقام، ووجد في الحرب الصليبية فرصته المواتية للانتقام من سلاجقة الروم. ولا ريب أن رواية المؤرخ ڤيتالس كشفت بوضوح عن حقيقة موقف السلطان من الجيوش الصليبية، وتخوفه منهم وشكه في نواياهم، وتثبت في الوقت نفسه اعتباره للحرب ضدهم بأنها قضية حياة أو موت، دلل على ذلك رواية وليم الصوري التي تقول: "أن الأتراك كانوا على قناعة أن هذا الصراع كان صراعاً حتى الموت"[٣]، ورواية ويندوفر التي تؤكد: "أن الاتراك الذين عرفوا أنهم يقاتلون في سبيل حياتهم قاوموا بعنف"[٤].

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١١٨.

(٢) كومنينا: ألِكسياد، ص٢٤٢ – ٢٥١؛للاستزادة ينظر: الدويكات، فؤاد عبد الرحيم: العلاقات العسكرية بين سلطنة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية، بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الانسانية، سنة ٢٠٢٠، مجلد:٣٨ العدد:١٥٠، ص٥٣-٥٤.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ١٨٨.

(٤) ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٢١.

انسحب قلج أرسلان من سيفتوت وهو في غاية الحذر، وبسرعة تراجع مع جيشه لحماية أراضيه[١]، وأخذ يُعد العدة ويعبئ قواه للقاء المنتظر، فخزن من الطعام في نيقية ما يكفيه أثناء الحصار لأطول مدة كما قوى حماية الأبواب من الداخل[٢]،وعندما أيقن بحرج موقفه، وأن ليس بمقدوره الصمود طويلاً أمام تلك القوات استنفر كل قادر على حمل السلاح، فوافاه حشدٌ كبيرٌ من المتطوعة[٣]، وبحسب رواية المؤرخ ألبرت فون آخن تسلم قلج أرسلان معلومات مؤكدة عن ضخامة الجيوش الصليبية[٤]، ومواجهة جيش تلك عُدته وعدده مجازفة مخوفة، وتقتضي الحكمة العسكرية رسم خطة محكمة يدفع بها عن دولته، ويفهم من سياق الأحداث أن اجتماعاً عُقد ضم كبار القادة والضباط ورجال الدولة لاعتماد أسلوب المجابهة. وجعل هدفه أن يرد المحاصرين إن استطاع بعيداً عن المدينة، أو أن يدافع عنها بقواته بفاعلية أكثر[٥]. وبنى خطته الدفاعية على التحصن في الجبال المحيطة بالمدينة بهدف اعتراض زحف الحشود الصليبية وقطع خطوط إمداداتهم لإجبارهم على رفع

(١) ڤيتالي: التاريخ الكنسي، ص٣١.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١ / ٣٨.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٤؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٠؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٩؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١٨٧/١ ، ٢٣٠؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٣.

(٤) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١ /٣٨.

(٥) الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٦.

الحصار عن المدينة من جهة، ومن جهة أخرى تتيح له إمكانية الاجتماع بالنجدات الإسلامية خارج نيقية لمهاجمة القوات الصليبية(١)، أما العنصر الأخر من خطته فيقتضي بالدفاع عن عاصمته فيما عرف بحرب الحصون لاستنزاف القوات الصليبية بصورة كبيرة، ولتحقيق ذلك وضعت حامية قوية في المدينة للدفاع عنها، الأمر الذي أكدته المصادر المعاصرة، فأشارت المؤرخة البيزنطية أَنّا كومنينا إلى ضخامة قوات الترك داخل مدينة نيقية(٢)، أما المؤرخ وليم الصوري فذكر بأنه كان في نيقية سكان كثيرون، ذوو طاقات قتالية كبيرة مع حب للحرب(٣)، ولنا أن نتساءل هنا من الذي تولى قيادة الحامية العسكرية المدافعة عن العاصمة؟

إننا إذا أمعنا النظر في المصادر اليونانية واللاتينية، فالراجح أن الخاتون زوجة قلج أرسلان ابنة الأمير جكا نهضت بعبء الدفاع عن العاصمة، وكانت المدبرة الحقيقية لأعمال الدفاع عن المدينة.

وبخصوص المصادر اليونانية نجد أنه طبقاً لرواية المؤرخة كومنينا فقد كانت الخاتون زوجة السلطان قلج أرسلان حاضرة في المفاوضات التي جرت بشأن تسليم نيقية لمبعوث الإمبراطور مقابل ضمان سلامتهم عند خروجهم منها، وجاء في الرواية: "بعد أن فرغوا من المجاملات المألوفة أطلعهم بوتوميتس

---

(١) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١ / ٣٩؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣١.

(٢) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤٢٠.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٠.

(Boutoumites) على المرسوم السامي الذي معه من الإمبراطور وهو مرسوم لم يقتصر على تزويدهم بالأمان فقط بل سخا عليهم إلى جانب ذلك بقدر كبير من المال، زيادة على إنعاماته التشريفية على أخت السلطان، وعلى زوجته"[١].

أما في المصادر اللاتينية فإننا نشير في هذا الصدد لرواية ألبرت آخن وفيها: "قبض الصليبيون على صاحبة أو سيدة نيقية – وهذه العبارة يراد بها في المصادر اللاتينية المتولية لشؤون المدينة–، زوجة قلج أرسلان وهي تصرخ وتأمر الأتراك بأخذها في الليل إلى البحيرة، وابعادها"[٢]، وتأتي رواية وليم الصوري موضحة دور الخاتون وما تحملته من مشاق أثناء الحصار، يقول: "كانت زوجة قلج أرسلان قد تحملت حتى هذا الحين مشاق الحصار، لكن بصعوبةٍ كبيرة، أما الآن فقد أصابها ذعر شديد بسبب انهيار البرج، لهذا سارعت فأمرت بإعداد السفن، وغادرت المدينة خلسة، تحيط بها جواريها وأسرتها بقصد البحث عن مكان أكثر أمناً"[٣]. ونجد رواية مشابهة لهذه الرواية في حولية المؤرخ ويندوفر، تقول: "أصيبت زوجة السلطان بالرعب لسقوط البرج، ولم يعد لديها أمل، لذلك حاولت النجاة بشكل سري والفرار من المدينة عبر البحيرة"[٤]، إن هذه النصوص تدعم ما ذهبنا إليه أن الخاتون

---

(١) كومنينا: ألِكسياد، ص٤١٩.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١ /٤٣.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤١ – ٢٤٢.

(٤) ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٥.

قامت بأعباء الدفاع عن المدينة، ولا غرابة في ذلك، فقد كانت المرأة السلجوقية الوحيدة – في النظام السياسي الإسلامي– التي مارست السلطة بشكل قانوني، تأثراً بالعادات والتراث القبلي لقبائل الغز التركية التي انحدر منها السلاجقة قبل قيام دولتهم، ولما دخلوا المشرق الإسلامي، وأسسوا دولتهم نقلوا إلى الدولة تلك الممارسات، ومنها المكانة المميزة لزوجة السلطان، فأصبح للخاتون دوراً عسكرياً أساسياً في الدولة وعدت من المسؤولين العسكريين، وكانت تطالب بهذا الدور إلزامياً لكونها من المقطعين الكبار الذين يترتب عليهم تقديم خدمة عسكرية للدولة مقابل إقطاعاتهم. وأكدت المصادر الإسلامية وجود قوات عسكرية تابعة للخواتين بشكل دائم(١). لذلك تولت زوجة السلطان قيادة الحامية العسكرية المدافعة عن نيقية طبقاً للتراتيب العسكرية السلجوقية.

أقام السلطان في قلعة نيقية – مقر الحكم والإدارة– يرقب عن كثب تحركات الحشود الصليبية، ولما علم بعبورهم مضيق البسفور، ترك القلعة وأرسل للأتراك – القبائل التركمانية– في الأناضول طالباً النجدة، فوافاه حسب بعض المصادر خمسمائة ألف مقاتل وفارس– وفي هذا الرقم الكثير من المبالغة– من آسيا الصغرى ووضعهم في الجبال تجاه نيقية(٢).

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ٢٢١/١؛ عقلة، عصام مصطفى: المرأة والسلطة في الإسلام الخواتين السلجوقيات أنموذجاً، بحث منشور في مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، سنة ٢٠٠٧، مجلد: ٣٤، ص ٧٩٣ – ٧٩٤.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١ / ٣٨ – ٣٩.

تدفقت جيوش صليبية نظامية جرارة إلى آسيا الصغرى لحصار مدينة نيقية، وحسب بعض المصادر المعاصرة فإن ضخامة الجيوش الصليبية المتوجهة إلى نيقية فرضت عليهم أن ينقسموا إلى قسمين، قسم عبر إقليم بيثينيا إلى نيقوميديا ووصلوا إلى نيقية، بينما عبر القسم الآخر البسفور إلى كيبوتس التي اتخذوها قاعدة لتجمعاتهم(١).

بدء حصار نيقية وموقف السلطان قلج أرسلان :

نيقية عاصمة سلطنة سلاجقة الروم، وهي قائمة في سهل فسيح اشتهر بخصوبة أرضه ووفرة محاصيله الزراعية، والمدينة محاطة بالجبال من جميع الجهات(٢)، وتُعد مجموعة الجبال حولها بمثابة خط الدفاع الأول عن المدينة(٣)، وتشرف من الغرب على بحيرة كبيرة تدعى بحيرة أسكان، وأشادت المصادر اللاتينية المعاصرة بهذه البحيرة لكونها مانعاً طبيعياً يوفر الحماية للمدينة من الغرب، أيد ذلك رواية وليم الصوري، تقول: "أن مياهها تلامس أسوار المدينة، وتجلب السفن عبر هذه البحيرة المؤن من مختلف البقاع، وهذا الحال هو الدفاع الأفضل الذي كان باستطاعة المدينة أن تحصل عليه(٤)، كما

---

(١) كومنينا: أليكسياد، ص٤١٥.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٢٩؛ فيتالي: التاريخ الكنسي، ص٣٨؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٢.

(٣) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٩؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/٢٢٩.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٢٩.

أُحيطت المدينة بخندق وفر الحماية من بقية الجهات[١]، ويمتلئ بالمياه من الينابيع والجداول القريبة[٢]، وأثبت بحد ذاته أنه عائق خطير لمن يتقدم من المدينة بنية عدوانية[٣]. وتتمتع المدينة بموقع استراتيجي هام فهي تتحكم بالطرق الرئيسة التي تعبر الأناضول إلى الشرق[٤]، ويمر منها الطريق الحربي البيزنطي القديم، ولا يبعد عنه كثيراً إلى الشرق طريقاً آخر يعتبر بديلاً عنه[٥].

فضلاً عن ذلك، اشتهرت المدينة بقوة تحصينها ومناعة استحكاماتها، فهي محاطة بأسوار عريضة متينة البنيان ذات علو شاهق[٦]، ويعلو الأسوار أبراج كثيرة عالية جداً[٧]، حتى أن المدينة لم تكن تخشى هجوم الأعداء، ولا

---

(١) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٠.

(٢) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٠؛

Rosenmuller, The Biblical Geography of Asia Minor, Phenicia and Arabia, Tr: Morren, Edinburgh, 1841, p.p 10-11.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٠.

(٤) Ramsay, op. cit., P.P. 74 -82.

(٥) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٩.

(٦) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١١؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٦ – ٤٧؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/٢٣٠؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٣- ٣٤؛ ڤيتالي: التاريخ الكنسي، ص٣٨.

(٧) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية

قوة أية آلة[١]، وتتقارب المسافة ما بين الأبراج، ونصبت مجانيق الأبراج بشكل متناوب، حتى أن أحد لم يكن يستطيع التحرك بالقرب منها، دون أن يتعرض للخطر. وإذا أراد أن يتحرك للأمام لم يكن بوسعه أن يلحق أي ضرر لأنه سيكون من السهل جداً ضربه من أعلى البرج[٢]، إلى درجة أن رجالنا استولت عليهم الدهشة لدى رؤيتهم كتل التحصينات العملاقة هذه[٣]، ويعكس هذا الوصف من جانب وليم الصوري حالة الذهول والفزع التي أصيب بها الصليبيين لرؤية تلك التحصينات العملاقة، الأمر الذي يظهر بأن أوروبا الغربية لم يكن لديها حتى هذا الوقت تحصينات ضخمة كهذه. وعليه، فإن غالبية من شارك في هذه الحملة لم يكن لديهم سابق خبرة ومعرفة في قتال مثل تلك الحصون العملاقة، واعتمدوا في ذلك على المساعدات التي قدمتها بيزنطة في هذا المجال.

زحف غودفري البويوني (Godfry of Bouillen) بقواته إلى نيقوميديا وعسكر بها ثلاثة أيام[٤]، ولحقت به قوات بوهيمند بقيادة تانكرد

الأولى، ٥١/ ٣٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٠.

(١) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧.

(٢) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٠.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٢؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٠؛ للاستزادة عن نيقوميديا ينظر: موستراس: المعجم الجغرافي، ص٥١. وانظر ترجمة غودفري البويوني عند: الصوري: تاريخ الحروب الصليبية،٢/١٥١-١٥٢.

(Tancerd)، وشراذم ما بقي من جموع بطرس الناسك[١]، وصحب هذه القوات ثلة من المهندسين البيزنطيين بأدوات الحصار لتقديم المساعدة أثناء محاصرة المدينة[٢]. تابع غودفري زحفه جنوباً باتجاه نيقية، ولما أسداه الإمبراطور البيزنطي ذو الخبرة الطويلة في حروبه مع سلاجقة الروم والمدرك لأساليبهم القتالية من نصح[٣]، التزم غودفري الحيطة والحذر في مسيره وتقدم ببطء نحو نيقية[٤]، وأرسل أمامه فرقة من الكشافة للاستطلاع، وقوة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل[٥]، ومهندسين بيزنطيين لتمهيد الطريق وتوسعته، وتمييزه بعلامات من الصلبان الخشبية لتسترشد بها القوات الصليبية التي تسلك الطريق[٦].

وصل غودفري إلى نيقية في ٦مايو (أيار) ١٠٩٧م/٤٩١هـ، فعسكر أمام أسوارها[٧]، تبعه في اليوم ذاته قوات بوهيمند، انتشرت القوات الصليبية بشكل

---

(١) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٢؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٧. انظر ترجمة تانكرد: فؤاد الدويكات: إقطاعية طبرية في العصر الصليبي، أربد، مؤسسة حمادة،٢٠٠٢،ص٨٧-٨٨.

(٢) بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص٦٨؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٥١.

(٣) كومنينا: ألِكسياد، ص٤٠٥، ٤٠٩.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٢٤.

(٥) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٣.

(٦) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٣.

(٧) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٣؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٠.

دائري مطوقة المدينة من جمع الجهات[١]، وتفحص الجيش الأسوار وشنوا الهجوم عليها[٢]، وعلى حد قول وليم الصوري على الرغم من أن صفوفها لم تكن مرتبة، ولم يكن قد تم الانتهاء من تجهيز المعسكرات[٣]، أمطرت قوات المشاة الصليبية بوابل من السهام المدافعين لإبعادهم عن الأسوار، لكن المدافعين رشقوهم بسحب من النبال من فوق، فكثرت فيهم الإصابات، وإذ رأى قادة القوات الصليبية أن الأسلوب الذي اتبعوه في الهجوم لم يجدِ، فقد ارتأوا في أعقاب اجتماع عقدوه رسم خطة جديدة بحيث يحاصر كل امير جهة من جهات المدينة[٤]، وتُظهر الرواية التي نقلها لنا ألبرت آخن أن القوات الصليبية افتقرت للخبرة المناسبة في حرب الحصون، واستلزم ذلك التحول إلى خطة بديلة، والراجح أن ذلك تم بناءً على مشورة ونصح من المهندسين البيزنطيين الذين رافقوهم. ووفقاً للخطة الجديدة توزعت الجيوش الصليبية بحيث حاصر بوهيمند والقوات الفرنسية المدينة من الجهة الشمالية، فيما حاصر غودفري وكونت فلاندرز المدينة من جهة الشرق، وتركت الجهة الجنوبية فارغة ريثما تصل قوات ريموند سانت جيل (Raymond St.Giles)، وأسقف بوي، أما الجهة الغربية فإنها لم تحاصر لوجود البحيرة،

(١) توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٠؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٢٥؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣١.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٨.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣١.

(٤) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٨.

والتي كان ينفذ منها المؤن والإمدادات إلى المدينة[١]، أما الإمبراطور البيزنطي فقد تحرك بقواته إلى قرية بلكانوم (Pelekanum) القريبة من نيقية جاعلاً منها مقراً لعملياته العسكرية، ليتسنى له متابعة التحركات العسكرية للسلطان خارج المدينة، وليرقب عن كثب تطور الأحداث داخل مدينة نيقية[٢]. وكان قلج أرسلان في هذا الوقت يبث العيون والجواسيس الذين تخفوا بلباس الصليبيين للتجسس على القوات الصليبية[٣].

في اليوم الرابع للحصار – ٩ مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ– أرسل قلج أرسلان برجلين من استخباراته إلى المدينة لرفع الروح المعنوية للحامية، وحثها على الثبات لحين وصول النجدات الإسلامية لمهاجمة الصليبيين[٤]، ويعنينا من ذلك ما جاء في هذه الرواية: "سنشن على الفور هجوماً مفاجئاً على معسكرهم عندما يكون جميع الجند قد اتحدوا في قوة واحدة، استعدوا من جانبكم لمساعدتنا عندما نهاجم من الخارج، واستعدوا أيضاً لفتح الأبواب"[٥]، فهذا النص يدل على أن الهدف من الرسالة التنسيق بينهما

(١) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٨.

(٢) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤١٠.

(٣) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٩.

(٤) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٩؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣١– ٢٣٢؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٣.

(٥) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٢.

والاستعداد لشن هجوم كاسح على القوات الصليبية يلحق بهم أفدح الخسائر، بحيث يهاجم السلطان من الخارج، بينما تقوم قوات الحامية بالخروج من المدينة ومهاجمة القوات الصليبية فيطبقون معاً على القوات المعادية. لكن مقتل أحد الرسل ووقوع الآخر في الأسر، حال دون وصول تعليمات السلطان إلى الحامية، وتحت التعذيب أفصح الأسير عن مضمون الرسالة التي يحملها، وأبلغ القادة الصليبيين بأن السلطان عاقد العزم على مهاجمة المدينة بشكل مفاجئ في اليوم التالي – ١٠مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ–[١].

وبحسب المصادر اللاتينية قرر قادة الحملة الصليبية رفع أهبة الاستعداد في معسكراتهم، ومضاعفة الحراسة الليلية، وبعث غودفري برسالة عاجلة إلى كونت تولوز وأُسقف بوي اللذين لم يكونا قد التحقا بالقوات المحاصرة يدعوهما للحضور على جناح السرعة لمساعدة إخوانهم في حرب الأتراك، ووفقاً لما أورده ألبرت آخن ووليم الصوري فقد شرع الكونت والأسقف بالرحيل فوراً، وتقدما طوال الليل، ووصلا المعسكر في الصباح المبكر قبل شروق الشمس[٢]، لكن روايتهما لم تكن دقيقة، لأن قوات ريموند لم تصل إلى

(١) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٩؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٢؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٣.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٩؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٢؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٣.

نيقية إلا في ١٦ مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ[١]، وبذلك فقد خلط ألبرت ووليم بين هذا الهجوم والهجوم الذي وقع في ١٦ مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ.

في صبيحة اليوم التالي – ١٠ مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ– شن قلج أرسلان هجوماً كاسحاً بقواته التي قدرها ألبرت آخن بعشرة آلاف فارس[٢]، بينما قدرهم وليم الصوري بخمسين ألفاً[٣]، على القوات الصليبية، وعلى حد تعبير وليم الصوري، تماماً كما كان أسيرهم قد صرح من قبل[٤]، الأمر الذي يجعلنا نؤكد أن هذا الهجوم كان الأول من جانب قلج أرسلان على القوات الصليبية المحاصرة لنيقية وسبق زمنياً بستة أيام وصول قوات ريموند إلى نيقية، يؤيد ذلك رواية بطرس توديبود أن حامية نيقية وبعد عودة قلج إلى مقر قيادته أرسلت له برسالة ثانية لمعاودة الهجوم على القوات الصليبية من الجهة الجنوبية لأنه لن يعترض طريقهم أو يضايقهم أحد[٥]، والراجح أن تكون هذه الرسالة قد وصلت في الفترة ما بين ١٢– ١٣ مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ.

بعد تسلمه للرسالة جهز قلج أرسلان قواته لمهاجمة القوات الصليبية، وسير فرقة من قواته زحفت باتجاه نيقية في تشكيلين، أحدهما اتجه لمهاجمة غودفري

---

(١) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٤؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٦.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٣٩ –٤٠.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٣.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٣.

(٥) توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٠.

والقوات المحاصرة للمدينة من الشرق، بينما تهاجم الفرقة الأخرى المدينة من الجنوب ظناً منه أن هذه الجهة ما زالت أقل الجهات حماية وتدخل الباب الجنوبي وتخرج من باب آخر، فتبيد بذلك، وبسهولة القوات الصليبية التي لم تكن تتوقع ذلك الهجوم، -وقد وقع هذا الهجوم في ١٦ مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ- وكان ريموند قد وصل لتوه من القسطنطينية وكان منهمكاً بتجهيز معسكره، وبحسب المصادر اللاتينية تمكن من التصدي للفرقة السلجوقية التي حاولت دخول المدينة من الجنوب، كما تصدت قوات غودفري للفرقة الأخرى التي هاجمتهم(١)، لكن رواية المؤرخة البيزنطية كومنينا والتي استمدتها من تاتيكيوس (Taticius) قائد القوات البيزنطية المشاركة في حصار نيقية تؤكد بأن الكونت ريموند الصنجيلي لم يتمكن من التصدي للفرقة السلجوقية إلا بفضل المساعدة التي قدمها الكونتات ومنهم بوهيمند(٢)، وهكذا فإن الغارة التي شنتها قوات قلج أرسلان على البوابة الجنوبية كانت موفقة بحيث عجزت قوات ريموند عن التصدي لها بمفردها، ومهما يكن فقد دارت بينهما معركة شرسة حتى حجز الليل بينهما(٣).

(١) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٤- ٣٥؛ ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٧؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٠- ١١١؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٦.

(٢) كومنينا: أليكسياد، ص٤١٦.

(٣) كومنينا: أليكسياد، ص٤١٦.

في صبيحة اليوم التالي -١٧ مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ- برز السلطان في كامل سلاحه وأنزل رجالة السهل الواقع خارج أسوار نيقية، واستعدت القوات الصليبية للقاء[١]، ولما علم الإمبراطور البيزنطي بتصميم السلطان على القتال تقدم للاستيلاء على البحيرة للحيلولة دون دخول السلطان للمدينة من خلالها[٢]، وتذكر الروايات أن معركة شرسة نشبت بين الطرفين استمرت طيلة النهار، وإن لم تسفر عن نتيجة حاسمة، ووضع الليل نهاية لهذا القتال الذي سقط فيه الكثيرون من الجانبين، وانسحب السلطان بقواته إلى مواقعهم[٣]، ووفقاً لراوية صاحب الجستا وتوديبود تجمع الترك مرة خرى وعاودوا الهجوم على القوات الصليبية[٤]، وفي هذا الصدد يقرر المؤرخ الأرمني متى الرهاوي أن السلطان قلج أرسلان أعاد تنظيم قواته، وشن هجوماً جديداً - بعد ثلاثة أيام من الهجوم الأول- ٢٠ مايو ١٠٩٧م/٤٩١هـ- ونشب قتال عنيف بين الطرفين ودارت الدائرة على سلاجقة الروم وهزم السلطان[٥]، وهو ما يتفق مع منطق الأحداث لكون المعركة الأولى لم تسفر عن نتيجة

(١) كومنينا: أليكسياد، ص٤١٦.

(٢) كومنينا: أليكسياد، ص٤١٨.

(٣) كومنينا: أليكسياد، ص٤١٦.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٤؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٠.

(٥) الرهاوي: تاريخ متى الرهاوي، ص٧١.

حاسمة، ونلاحظ أن هذه الهزيمة كانت شديدة على السلطان نظراً لعدم وصول نجدات إسلامية، لذلك كف عن محاولاته فك الحصار عن المدينة.

استسلام مدينة نيقية:

حين وجد قلج أرسلان نفسه يحارب على جبهتين في آن واحد الإمبراطورية البيزنطية بثقلها العسكري، والقوات الصليبية المتفوقة عليه تفوقاً عددياً هائلاً. آثر الانسحاب إلى الجبال المحيطة بنيقية لإعادة تنظيم جيشه، ومحاولة الاتفاق مع القوى الإسلامية داخل الأناضول وخارجها للتكاتف معاً لصد الخطر الصليبي الذي يهددهم جميعاً. الأمر الذي ترتب عليه تفرغ القوات الصليبية البيزنطية لإسقاط نيقية.

أسهبت المصادر اللاتينية المعاصرة بالحديث عن الفعاليات الهجومية التي نفذتها القوات الصليبية ضد نيقية، وهنا يذكر المؤرخ ريموند آجيل: "نصبنا الآلات وقصفنا السور دون أي نتيجة. كان السور لا يُخترق. وكان الدفاع الجسور بالأسهم والآلات يبعث على الإحباط"(١). وقد عبر وليم الصوري عن الإحباط واليأس الذي تملك الصليبيين، بقوله: "أقام سكان المدينة الاستعدادات لمقاومة عدوهم بكل قوة، فقد واجهوا الخدعة بالخدعة، والقوة بالقوة، وأظهروا شجاعة لم تكن أقل من شجاعة المسلمين، وقاوموا كرجل واحد بالقسي وألات المنجنيق، وأدوات القذف الحربية، وكل سلاح يمكن

(١) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٨.

تخيله، لصد العدوان، وتجنب الخسائر الموجهة إليهم"[١]، وتوضح روايته هذه أن حامية نيقية العسكرية لم تبدِ خوفاً وجزعاً من ضخامة الحشود المهاجمة وإنما احتفظت برباطة جأشها وشجاعتها واستماتت في الدفاع عن المدينة، ويحدثنا فوشيه الشارتري حديث شاهد عيان، يقول: "حارب رجال أعدائنا ورجالنا كراً وفراً بكل ما أوتوا من قوة، وطالما هاجمنا المدينة بآلاتنا الحربية، لكن مناعة الأسوار أحبطت هجومنا، وقد سقط عدد كبير من الاتراك ومن رجالنا مصابين بالسهام أو الحجارة"[٢]، وكانت الخطة الدفاعية المرسومة للدفاع عن المدينة تقوم على منع القوات المهاجمة الاقتراب من الأسوار، يؤيد هذا ما أشار إليه فوشيه الشارتري بقوله: "كان الأتراك يقتلون أي رجل من رجالنا يقترب من السور"[٣]، وقد كفلت هذه الخطة الحماية من عمليات النقب وتوهين الأسوار، لذلك كان على قادة الحملة أن يتدبروا حلاً للخروج من هذا المأزق، هنا بدأت محاولات تقويض الأسوار، غير أن المدينة كانت بالغة المناعة مناعة تجعلها عزيزة المنال[٤]، وأخفق ريموند الصنجيلي واسقف بوي بتقويض أحد أبراج المدينة من الجهة الجنوبية، وما أحدثوه به من ضرر أصلحه المدافعون ليلاً وبنوا سوراً جديداً[٥]، ثم نجح الصليبيون بعمل فتحة في

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٧ – ٢٣٨.

(٢) الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٦ -٤٧.

(٣) الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٧.

(٤) كومنينا: ألِكسياد، ص٤١٨.

(٥) ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٨؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت

السور تسمح بعبور شخصين، لكن المدافعين منعوهم من الدخول خلالها برميهم بالسهام والمنجنيقات بشدة، فكبدوهم خسائر فادحة في الأرواح[١]، ثم قاموا ببناء برج خشبي متحرك، لكن ما أن دفعوا به نحو السور لهدم جزء منه حتى عطبة المدافعين وسقط بكل من فيه وقتلوا جميعاً[٢]، ومن دراستنا للنصوص المتعلقة بهذه القضية نجد أن المقاومة العنيفة كان لها أثراً لا يستهان به في تحطيم معنويات الصليبيين، فاشتدت مُعاناتهم، وشعروا باليأس والإحباط، بل إن تدهور معنوياتهم في هذا الوقت كاد أن يدفعهم للتخلي عن غايتهم بإسقاط نيقية، ولا بد من الإشارة هنا لرواية وليم الصوري عن ذلك، مؤكداً: "أنه عندما رأوا أن أي جزء من المنسوف خلال النهار كانت تتم إعادة بناءه وترميمه أثناء الليل التالي، بدأوا بالتراخي بالحال في بذل جهودهم بعض الشيء، وبما أنهم لاحظوا أن عملهم لم يلاقِ أي نجاح، فقد كانوا على وشك التخلي عن غايتهم"[٣].

أمام هذا الوضع، اقتضت الضرورة التدخل من جانب الإمبراطور لانتشال بيزنطة من الهاوية التي ستسقط فيها، فقد كان الإمبراطور موقناً أنه لو فشل الحصار وتخلى الصليبيين عن التزامهم بإسقاط نيقية، فسيتغير ميزان

المقدس، ص١١١.

(١) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٤١؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٨ – ٢٣٩.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٤٢.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٩.

القوى من جديد، وستعود لسلاجقة الروم قوتهم وحماستهم، وسيعودون سيرتهم الأولى للاستيلاء على القسطنطينية خاصة بعدما تكشفت الحقائق وانجلت عن التحالف البيزنطي الصليبي ضد سلاجقة الروم. وقد عبرت كومنينا عن قناعة والدها بعجز الصليبيين عن اسقاط نيقية بقولها: "كان على ثقة تامة باستحالة تمكن اللاتين من اقتحام نيقية بفضل مناعة أسوارها مناعة تجعلها عزيزة المنال"(١)، وتستأنف كومنينا حديثها مؤكدة في الوقت نفسه أن والدها أدرك تمام الإدراك أنه ربما لا يكون من الممكن للاتين أن يستولوا عليها مهما بلغوا من الكثرة العددية(٢)، فإسقاط المدينة يلزمه أحكام الحصار حولها بمنع وصول المؤن والإمدادات عن طريق البحيرة، وكانت قوارب السلاجقة في البحيرة تمد المدينة بكل احتياجاتها وكان بمقدورهم الخروج والعودة محملين بالعلف والأخشاب وغير ذلك من الغلات(٣)، ولتحقيق ذلك أرسل الإمبراطور بضع سفن خفيفة نقلوها على العربات وأنزلوها في البحيرة، وملأها بالعسكر وهم في كامل سلاحهم الحربي تحت قيادة مانويل بوتوميتس، كما أرسل قوات برية بقيادة تاتيكيوس (Taticius) للاستيلاء على القلعة(٤)، وليس هذا فحسب، بل شيد وسائل دفاع مختلفة الأنماط مما لم

(١) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤١٨.

(٢) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤١٨.

(٣) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٦.

(٤) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤١٨ -٤١٩؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٧.

يسبقه إليها أحد، ثم أرسل هذه الآلات إلى الكونتات[١]، سعياً منه لتحقيق هدفه بإسقاط نيقية.

تمت السيطرة على البحيرة وأحكم حصار المدينة في ١٨ يونيو (حزيران) ١٠٩٧م/٤٩١هـ، وملأ الخندق المحيط بالمدينة بالأتربة حتى استوى بسطح الأرض من كلا الجانبين، وشرعت القوات الصليبية بالاقتراب من الأسوار[٢]. في ليلة ١٨ يونيو وضعت الخطة من جانب قادة الحملة الصليبية لشن هجوم شامل على المدينة، وتحدد اليوم التالي -١٩ يونيو- لبدء الهجوم. في هذه الأثناء فتح باب المفاوضات بين الخاتون زوجة قلج أرسلان، وبين ممثل الإمبراطور البيزنطي بوتوميتس[٣]، وإذ أدركت الحامية ألا جدوى من المقاومة تخوفاً من حرب مهلكة، فقد ارتأوا تسليم المدينة، وتعزو المصادر اللاتينية السبب في ذلك لعلمهم أنهم لن يستطيعوا تلقي أية نجدة من جيوشهم[٤]، وهذا السبب بدون شك هو الذي دفع المؤرخ ويندوفر للقول: "أنهم أُرغموا

(١) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤١٨.

(٢) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤١٧؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٣) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤١٨ - ٤٢٢؛ للاستزادة يُنظر: مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٦ -٣٧؛ ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٨؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١١؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٧.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٧؛ ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٨؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١١.

على الاستسلام"[١]، بعد أن فشلت الجهود الصليبية للاستيلاء على نيقية بسبب الإجراءات الدفاعية التي اتخذها السلطان، وبسالة الحامية المرابطة فيها.

في صبيحة ١٩ يونيو ١٠٩٧م/٤٩١هـ استسلمت المدينة للإمبراطور[٢]، ودخلت القوات البيزنطية المدينة من الباب المطل على شاطئ البحيرة[٣]، وعُّد ذلك أَمراً بالغ الأهمية، لما تمخض عنه من نتائج مهمة. فقد خسر السلطان عاصمة ملكه، وما تجمع فيها من ثروات كبيرة، وبموجب معاهدة الاستسلام أرغم السلطان على إطلاق سراح جميع الأسرى الذين أسرهم من قوات بطرس الناسك، كما اطلق سراح الأسرى الذين أسرهم سكان المدينة[٤]، وتم الاستيلاء على ممتلكات سكان المدينة من ذهب وفضة وغير ذلك لتصبح ملكاً للإمبراطور[٥]، وأمكن بفضل هذه المعاهدة إعادة نيقية للإدارة البيزنطية المباشرة، وعُين الجنرال بوتوميتس دوقاً للمدينة[٦]، ووضع فيها حامية عسكرية قوية للدفاع عنها[٧]، وبذلك تأكدت السيادة البيزنطية عليها.

---

(١) ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٦.

(٢) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤٢٠.

(٣) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤٢٠.

(٤) الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٧؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٢.

(٥) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٣.

(٦) كومنينا: أَلِكسياد، ص٤٢٢.

(٧) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٣.

أما النتائج غير المباشرة فجاء إسقاط نيقية تتويجاً لسياسة الإمبراطور ضد سلاجقة الروم، وتصديه لهم وفق خطة بيزنطية محكمة وضعها وأشرف على تنفيذها بنفسه[١]، وبسقوط نيقية أجبرهم على الخروج منها، وهو أمر في غاية الأهمية إذا وضعنا في اعتبارنا الدور الذي لعبه قلج أرسلان في إعادة إحياء السلطنة وتثبيتها، وبإخراجهم منها ضمنت بيزنطة حماية مأمونة للقسطنطينية من أية اعتداءات من جانبهم[٢].

معركة ضورولیوم ١يونيو(حزيران)١٠٩٧م/٤٩١هـ:

لم يفقد قلج أرسلان رباط جأشه، وقدرته على القيادة والتخطيط في أعقاب تلك الهزيمة. وراح يعد العدة كي يثأر من الصليبيين[٣]، ولتحقيق ذلك، شرع بتشكيل حلف إسلامي لدرء الخطر الصليبي ومنعه من التوغل في الأناضول، وقد نجح في اقناع الأمير الدانشمندي كمشتكين أحمد بن الدانشمند (٤٧٧ – ٤٩٩هـ/١٠٨٤ –١١٠٥م)، والأمير حسن أمير كبادوكيا بالانضمام إلى الحلف. وكانت الظروف الصعبة التي تمر بها المنطقة تتطلب تناسي خلافاتهم مع قلج أرسلان للتصدي للجيوش الصليبية والبيزنطية[٤]، كما انضم إلى الحلف مجموعة من الأمراء، ويذكر فوشيه الشارتري الذي انفرد بهذه الرواية ما نصه: "تجمعوا مطيعين أوامر سليمان –

(١) كومنينا: ألِكسياد، ص٤١٠.

(٢) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص٧٤.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٥.

(٤) كومنينا: ألِكسياد، ص٤٢٤؛ ڤيتالي: التاريخ الكنسي، ص٤٣.

قلج- وأتوا إلى معونته من مسيرة ثلاثين يوماً. كان معه كثير من الأمراء مثل أمير كرادجيم، وأمير ياثوس وغيرهم"[١]، ولم نتمكن من تحديد هذه الأسماء المبهمة، لكن الراجح لدي بعد إمعان النظر في رواية الشارتري أن هؤلاء من أمراء الناوكية، الذين دانوا بالطاعة لآل قتلمش الزعماء التاريخيون المعترف بهم للغز الناوكية[٢]، كما استنفر كل القادرين على حمل السلاح من القبائل التركية في آسيا الصغرى. فتجمعت لدية قوة كبيرة من المقاتلين[٣].

في ٢٦ يونيو (حزيران) ١٠٩٧م/٤٩١هـ، غادرت مقدمة الجيش الصليبي مدينة نيقية، ثم تبعها في اليومين التاليين سائر القطعات الصليبية، وتوقفت هذه الحشود عند جسر جكسو في قرية لوكي (Leuce) [٤]، وبرفقتهم فرقة من الجيش البيزنطي يقودها تاتيكيوس[٥]، وهنا عقد قادة الحملة اجتماعاً للتشاور والبحث في مسألة التموين، وللتغلب على هذه المشكلة جرى تقسيم الجيش الصليبي إلى قسمين: قسم تحت قيادة بوهيمند وزحف في ٢٦ يونيو، على أن يسير من طريق، وقسم تحت قيادة ريموند كونت تولوز ويسلك طريقاً

(١) الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٨.

(٢) عقلة، عصام: الناوكية في بلاد الشام ، ص ٣٩ -٤٠، ٤٥ -٤٦.

(٣) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٩؛ ريموند آجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص٧٩؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٢؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٥.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٨؛ كومنينا: ألِكسياد، ص٤٢٤.

(٥) كومنينا: ألِكسياد، ص٤٢٤.

تختلف عن الطريق التي سلكها الجيش الأول وزحف في ٢٨ يونيو، وتشير المؤرخة أنا كومنينا أن بوهيمند اتخذ طريقة إلى أسكي شهر[١].

أرسل قلج أرسلان عيونه يتعرفون أخبار القوات الصليبية عدتهم وهيئتهم، وسرد لنا وليم الصوري رواية تشير إلى ذلك، يقول: "زوده كشافوه – الاستخبارات العسكرية– باستمرار بمعلومات عن تحركات الحشد المتقدم، وانتظر بتلهف فرصة مواتية للهجوم عليه، وكان قد علم لتوه من خلال هؤلاء الكشافة أن الجيش قد انشطر، وأن الشطر الذي هو من الواضح أنه أكثر ضعفاً، وأقل قوة، وأقل عدداً كان بالقرب منه، فقرر على الفور أن الفرصة قد حانت"[٢]. بينما تذكر المؤرخة كومنينا بأن استخبارات قلج أرسلان اخفقت في تقصي أخبار الجيش وعدده وعدته، تقول: "سرعان ما نشبت معركة عنيفة بين الجانبين وكان الظن عند الترك أن ما يرون إنما هو كل الجيش الفرنجي"[٣]. ويبدو من هذه الرواية أن كومنينا تحاول أن تحمل قلج أرسلان مسؤولية الهزيمة في ضورولیوم، وليس بخاف علينا أن السبب في ذلك ما تكنه لسلاجقة الروم من بغض وكراهية، إذ منذ أن وطئت أقدامهم آسيا الصغرى

(١) كومنينا: ألِكسياد، ص٤٢٤؛ للاستزادة يُنظر: مجهول: أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ص٣٨؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٢؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٤٤؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٨.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/ ٢٤٥.

(٣) كومنينا: ألِكسياد، ص٤٢٤.

وهم في صراع مع بيزنطة فيقتطعون من أملاكها، ويرسخون أقدامهم في أراضيها.

استعد قلج أرسلان وقواته للقاء المنتظر ونصب كميناً في جنبات السهل الذي ستعبره قوات بوهيمند. وفي ضوء رواية فوشيه الشارتري عسكرت القوات الصليبية في سهل قرب ضورولیوم، وقد علموا من خلال كشافتهم بأن الأتراك نصبوا لهم كميناً "وصلتنا تقارير بأن الأتراك نصبوا لنا شركاً في سهل ظنوا أنه يتوجب علينا اجتيازه، وتوقعوا أن يحاربونا هناك، ولما استطلع كشافتنا في ذلك المساء كثيراً من الأتراك على بعد منا أعلمونا بذلك على الفور، فأقمنا الحراس طوال الليل يحمون الخيام من جميع النواحي"(١).

غير أنا نشك في صحة هذه الرواية وإلا فلماذا لم يرسل بوهيمند برسله إلى قوات الجيش الثاني لاطلاعهم على حقيقة ما يجري ويحثهم على سرعة التحرك لمساعدته، كما أن سير الأحداث وما قدمه ألبرت آخن في روايته من تفاصيل لا ينسجم وما ذهب إليه فوشيه في روايته.

أثناء عبور بوهيمند وقواته سهل ضورولیوم صبيحة يوم الأول من يونيو(حزيران) ١٠٩٧م/٤٩١هـ، انقض عليهم قلج أرسلان بقواته، ويؤكد ألبرت آخن في روايته إنه ما كاد جيش بوهيمند ينزل عن الخيول، حتى فاجأهم قلج أرسلان بالهجوم(٢)، بينما تؤكد روايات شهود العيان أن خفراء الصليبيين

(١) الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٧.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٤٤.

لمحوا القوات الإسلامية عن بعد فأنذروا الجيش، حينذاك سارع بوهيمند لتنظيم قواته للمعركة، فأمر بتجميع الأمتعة والحشد العاجز عن القتال في أيكة قصب مجاورة وأحاطهم بالعربات والآلات، وبعث بوهيمند رسولاً إلى الجيش الصليبي الثاني يحثه على سرعة الوصول للقتال إلى جانب إخوانهم في هذه المعركة(١).

في الساعة الثانية لشروق شمس ذلك اليوم برزت قوات قلج أرسلان فأثارت الرعب في صفوف الصليبيين لأنهم لم يروا سوى الفرسان(٢)، وما ان أقترب السلاجقة من الصليبيين حتى أحدثوا صخباً وضجيجاً عظيماً بحيث لم يكن مستطاعاً تمييز أي كلمة فيه، رنين السلاح، صهيل الخيول، أصوات الأبواق، قرع الطبول المثير للرعب، صرخات الجنود التواقة للحرب «الله أكبر»، روعت قلوب القوات الصليبية التي لم تكن معتادة مثل هذه الأساليب من قبل(٣)، وقد منع هذا الصخب والضجيج خيول الصليبيين من

(١) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٣٨- ٣٩؛ تودبيود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٢؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٤٧ – ٤٨؛ كومنينا: أليكسياد، ص٤٢٤.

(٢) الشارتري: تاريخ الحملات إلى القدس، ص٤٨.

(٣) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص٣٨ -٣٩؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص٤٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٤٦/١؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٧.

إطاعة الأوامر والتقدم[١]، ما أن اقتربت القوات الإسلامية من الصليبيين حتى أمطروهم بوابل من السهام ملأ الفضاء مثل البرد، وكان لذلك وقعه الكبير عليهم، إذ ندر ما سلم منهم أحد دون أن يصاب بجراح، ولم يكد ينقطع الوابل الأول حتى تبعه آخر من السهام أصاب كل من نجا بالصدفة من الوابل الأول، وقتل كثير من خيول الصليبيين[٢]، حاول بوهيمند اللجوء إلى قتال الالتحام، فتنبه السلاجقة لذلك، وأخذوا بالتراجع وفتح الصفوف لتجنب الاصطدام، وانطلت هذه الخدعة على الصليبيين، ثم أعاد السلاجقة ضم صفوفهم من جديد، وأطلقوا وابلاً كثيفاً من السهام كزخات المطر، قلما نجا أحد منهم دون أن يصاب بجروح خطيرة[٣]، كثف السلاجقة الضغط على القوات الصليبية التي انتابها الضعف، وطوقوا المعسكر الصليبي الأمر الذي جعل هروبهم مستحيلاً[٤]، حينئذ هاجموهم بالسيوف من مسافات قريبة، وتخلوا عن استخدام القوس، فوقع الاضطراب في صفوفهم. وقتل منهم

(١) ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٨.

(٢) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٣٩؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٤٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/٢٤٦.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/٢٤٧.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٣٩؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٢؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٤٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/٢٤٧؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٧.

قرابة ألفي فارس من ذوي المكانة، ولاذوا بالفرار[١]، وارتد بوهيمند مهزوماً وقد اثخنته الجراح[٢].

وفيما كانت قوات بوهيمند قاب قوسين أو أدنى من فناء محقق، أتتهم النجدة من الجيش الثاني، والتي كانت مؤلفة من الفرسان فقط[٣]، ولا ريب أن وصول هذه القوة التي قدرها وليم الصوري بأربعين ألف فارس[٤]، بينما قدرهم ألبرت آخن بستين ألف فارس[٥]، أحدث مفاجأة مذهلة لقلج أرسلان، الذي لم يستطع أن يحول دون اجتماع الجيشين، حينها أدرك ألا قدرة له على مجابهة قوات تتفوق عليه في العدد والعدة على نحو هائل، وأن الحكمة العسكرية تحتم عليه الانسحاب من ساحة المعركة، لكن تحقيق الانسحاب الآمن يعد من أصعب وأخطر العمليات القتالية لاحتمال تحوله إلى هزيمة في صفوف القوات المنسحبة. ولعل سرعة تحرك الصليبيين لم تتح له الوقت للانسحاب من المعركة. فقد أعاد قادة القوات الصليبية تنظيم قواتهم على عجل، فوضع على الميسرة بوهيمند وروبرت النورماندي وتانكرد، أما في

(١) توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٢؛ ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٤٤؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٤٧/١؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٧ – ٣٨.

(٢) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٤٤.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٤٧/١.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٤٧/١.

(٥) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٤٥.

الميمنة فكان ريموند الصنجيلي وغودفري وروبرت كونت الفلاندرز[١]، وأرسل خلف قوات قلج أرسلان قطعة من الجيش الصليبي بقيادة أدهيمار لمهاجمتهم بصورة مفاجئة[٢]، وشنت هذه القوات هجومها على القوات التركية مستغلة حالة الارتباك التي أصابت السلاجقة، وحملوا على ما أمامهم، فانكفأ السلاجقة مهزومين وتكبدوا خسائر فادحة في الأرواح[٣]، واستولى الصليبيون على مغانم هائلة من سلاح واموال ومتاع وخيول وجمال –لم يعتادوا رؤيتها في بلادهم–[٤].

وفي رأيي فإن قلج أرسلان مُلام ويتحمل إلى حد ما تبعة ما حل بقواته من هزيمة قاسية، فقد علم من استخباراته أن الجيش الصليبي قد انقسم إلى قسمين، وقد أختار أن يهاجم القسم الذي اعتقد أنه الأقل عدداً والأكثر ضعفاً، لكنه اسقط من حساباته القسم الآخر من الجيش، وهو على درجة من القوة لا يستهان بها، وكانت الحكمة العسكرية تتطلب منه بناء خطته على تثبيت الجيش الثاني ومنعه من التحرك من مواقعه بقوة صغيرة لضمان

(١) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٠؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٣.

(٢) توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٣.

(٣) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤١؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٣– ١١٤؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٥٠.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤١؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٤٨/١.

عدم قدرته على الوصول للقوات الأخرى إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، بينما يركز وقواته الهجوم على الجيش الأول حتى يتسنى له القضاء عليه – وكاد هذا الهدف أن يتحقق– ثم ينتقل بجموعه للتعامل مع الجيش الثاني. لكن ذلك لم يحصل.

عدت نتيجة هذه المعركة في غاية الأهمية، ومثلت منعطفاً هاماً في المواجهات التي تلتها على جبهات آسيا الصغرى بين الصليبيين والأتراك في ضوء النتائج التي تمخضت عنها وهي:

– فيما يتصل بسلاجقة الروم تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، فتدهورت السلطنة، الأمر الذي ترتب عليه انتهاج أسلوبٍ جديدٍ في المجابهة اعتمد سياسة الأرض المحروقة لحرمان الصليبيين من موارد المناطق التي يمرون بها، أملاً في إضعاف قدرتهم على المضي قدماً في مشروعهم. يتجلى ذلك واضحاً من رواية المؤرخ العظيمي، تقول: "واقعهم الدانشمند، وابن سليمان – قلج أرسلان– وأحرقوا بين أيديهم المعاقل وسدوا المناهل فهلك منهم خلق عظيم"(١)، وفي الاتجاه ذاته تتحدث المصادر اللاتينية عن قيامهم بتخريب المدن والقرى حتى استحال على الصليبيين أن يلتمسوا ما يقتاتون به عند زحفهم(٢).

---

(١) العظيمي: تاريخ حلب، ص٣٥٨.

(٢) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٣؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٥؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٥٢؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٥٣/١.

– في الجانب الصليبي، فقد حازوا غنائم هائلة من السلاجقة، عوضتهم عما فقدوه في بداية المعركة وخاصة من الخيول(١)، والأهم من ذلك، ارتفاع روحهم المعنوية حتى بدا أن ليس ثمة شيء يمكن أن يقف في طريقهم(٢)، وقررت هذه المعركة سير الحرب لاحقاً في آسيا الصغرى، وانفتح الطريق أمامهم إلى بلاد الشام(٣). والحقيقة أن معركة ضورولیوم أحدثت ردة فعل عميقة في نفوس الصليبيين، فقد علمتهم أن يزحفوا في جموع متحدة تجنباً لخسائر فادحة كالتي خسروها في ضورولیوم، كما أن المعركة جعلتهم يولون سلاجقة الروم ما يستحقونه من احترام تقديراً لشجاعتهم وإقدامهم، يبدو ذلك جلياً فيما سطره مؤرخو الحملة الأولى من إعجاب وتقدير لشجاعة الأتراك(٤).

– أما بالنسبة لبيزنطة، فإنها واستغلالاً لهزائم سلاجقة الروم فقد أخذت باستعادة الأقاليم التي كانت بأيديهم على السواحل الشمالية الغربية، والسواحل الغربية، والجنوب الغربي من الأناضول وذلك طبقاً للاتفاقية التي

---

(١) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤١؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٥٢.

(٢) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤١– ٤٢؛ تودیبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٥؛ الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٤٨ –٤٩.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٤٩/١.

(٤) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤١– ٤٢؛ تودیبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٤.

عقدت بين بيزنطة وقادة الحملة الصليبية الأولى، فتدهورت السلطنة وانكفأت إلى المناطق الداخلية من آسيا الصغرى[١].

بعد هذا النصر كان الهدف الرئيس التالي هو الوصول إلى بلاد الشام، وفي سبيل تحقيقه تابعت القوات الصليبية زحفها من إقليم بيثينيا صوب الجنوب الشرقي قاصدة إقليم بيسيديا وحاضرته أنطاكية الصغرى(يلفاك الحالية)، واجتازوا في الطريق إليها منطقة جافة، وقاسى الصليبيون من التعب والجوع، وازدادت معاناتهم من قيظ الصيف وشدة حرارته، فهلك الكثيرين منهم[٢]، تابعت القوات الصليبية تقدمها، وخيموا في منقطة خصبة كثيرة الخيرات قرب أنطاكية الصغرى، حيث انقسم الجيش الصليبي مرة أخرى إلى قسمين: قسم تحت قيادة تانكرد وبلدوين أخي غودفري وزحفوا تجاه قونية، وقسم بقيادة بوهيمند وريموند الصنجيلي وهؤلاء زحفوا بسرعة إلى أنطاكية الصغرى، بهدف الاستطلاع وتقصي المعلومات عن سلاجقة الروم[٣]، اجتازت الجيوش الصليبية في طريق تقدمها إقليم بسيديا، ووصلوا إلى قونية عاصمة إقليم ناكوليا في منتصف أغسطس (آب) ١٠٩٧م/٤٩١هـ، فوجدوها مهجورة تماماً من السكان[٤]، وكانت عيون قلج أرسلان قد وافته

(١) كومنينا: ألِكسياد، ص٤٠٢، ٤٣٢- ٤٣٤.

(٢) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٣؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٥ -١١٦.

(٣) ألبرت آخن: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ٥١/ ٤٦.

(٤) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٥٣/١؛ عن مدينة قونية ينظر: موستراس: المعجم الجغرافي، ص٤١٢.

بأخبار زحف الصليبيين قبل وصولها بوقت كافٍ فعمد لتطبيق سياسة الأرض المحروقة لحرمان الصليبيين من موارد المنطقة[١]، فهجر السكان للجبال المجاورة للتحصن بها، ونقلوا معهم قطعان المواشي وجميع ممتلكاتهم وأحرق كل ما يمكن أن يفيدوا منه، فعانى الصليبيين نقصاً كبيراً في الطعام، أيد ذلك وليم الصوري، بقوله: "تمحورت آمالهم على إمكانية اسراع المسيحيين بعبور بلدهم بعدما تكون ندرة الطعام قد انهكته وتحقق أملهم هذا، فقد فر الصليبيين من البلد القاحل الذي لم يقدم أي نوع من أنواع الطعام، وزحفوا قُدماً إلى الإمام بكل سرعة ممكنة"[٢]، وبفضل نصيحة الأرمن المقيمين بجوار قونية للصليبيين، حملوا معهم من الماء ما يكفيهم حتى يصلوا إلى وادي هرقلة الخصيب[٣]، وعند مدينة هرقلة التقت القوات الصليبية ثانية بقوات الأمير الدانشمند والأمير حسن، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين انتهت بانسحاب الترك نحو الشمال[٤]، وأقامت القوات الصليبية في المدينة أربعة أيام ١٠ –١٣ سبتمبر[٥]. ومن هرقلة تقدموا إلى قيصرية مركز الدانشمنديين، ثم إلى مرعش،

(١) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٥٣/١؛ ويندوفر: ورود التاريخ، ٣٩/ ٣٩.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٥٣/١.

(٣) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٤؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٦.

(٤) كومنينا: ألِكسياد، ص٤٢٤؛ مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٤؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٦.

(٥) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٤؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٦.

وميزة هذا الطريق توفر الدعم للصليبيين من جانب الأرمن[١]، وقد استوطن الأرمن المناطق الممتدة من قليقيا حتى شرقي الفرات [٢]، وأخيراً وصلت القوات الصليبية إلى مرعش وغالبية سكانها من المسيحيين الأرمن، فتعاونوا مع الصليبيين وتآمروا معهم على الحامية التركية المدافعة عن المدينة[٣].

عوامل الإخفاق والهزيمة:

إذا بحثنا في الأسباب التي أدت إلى الهزيمة التي لحقت بالسلطان أمام نيقية وغيرها. فإننا نجانب الصواب إن أوقعنا اللوم على السلطان قلج أرسلان ونسبنا إليه وحده أسباب الهزيمة، وأنه قصر ولم يقاوم الصليبيين مقاومة فعالة. ومن الأهمية بمكان أن نشير بأن مجموعة من العوامل تضافرت معاً وقادت إلى هذه النتيجة.

وفي رأيي فإن تصدع وحدة السلطنة السلجوقية نتيجة الخلافات الأسرية داخل البيت السلجوقي وتفرق كلمتهم، كان السبب الأساسي بدون شك في الهزيمة التي لحقت بقلج أرسلان. فحين ترك سلاجقة العراق وفارس والشام قلج أرسلان يواجه جيوش الحملة الصليبية والقوات البيزنطية وحيداً بلغوا حداً من ضيق الأفق جعلتهم لا يقدرون خطورة التحدي الذي يواجهه، ولعل امتناعهم عن تقديم المساعدة لسلاجقة الروم في محنتهم بفعل الخلافات التي

(١) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٥- ٤٨.

(٢) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص٦٨.

(٣) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٨.

ازدادت بعد مقتل سليمان بن قتلمش مؤسس السلطنة السلجوقية على يد تتش بن ألب أرسلان عند حلب[١]، تقيم الدليل على أن أبناء ملكشاه وتتش لم يتعاونوا مع أبناء سليمان بن قتلمش لإقامة جبهة موحدة للتصدي للخطر الصليبي. وأحسب أنه لو صحت نياتهم واتحدوا فيما بينهم وأمدوا سلاجقة الروم بالجيوش لأمكن هزيمة الصليبيين قبل أن يجتازوا بلادهم إلى ديار المسلمين[٢]، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل، وإنما آثروا الوقوف موقف المتفرج، فكان ذلك العامل الرئيس في الهزيمة.

كذلك كان التفوق العددي الهائل للجيوش الصليبية والبيزنطية، من أهم أسباب الهزيمة ويأتي من حيث الأهمية في المرتبة الثانية بعد تفكك السلطنة السلجوقية. فقد كان الجيش الصليبي قوة عسكرية ضخمة من شعوب غرب أوروبا، يصعب حصرها كما أخبر بذلك صاحب الجستا (Gesta)، "أنني لا أظن أن أحداً رأى من قبل أو سيرى من بعد مثل هذه الكثرة من الفرسان"[٣]، والواقع أنه لم يكن بمقدور هذه الجيوش أن تحقق انتصاراتها بهذه السهولة، لولا ظروف المشرق الإسلامي المواتية التي مكنتها من ذلك. ويخلص المؤرخ سميل (Smile) إلى القول بأن هذه القوات تميزت بالضعف وقلة

---

(١) كومنينا: ألِكسياد، ص٢٥٤؛ السرياني: تاريخ ميخائيل، ٣/ ١٥٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١١٩.

(٢) يوسف، إرشيد: سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥- ٥٧٠هـ، عمان، ١٩٨٨، ص١١١.

(٣) مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٣٥- ٣٦.

الكفاءة العسكرية، وانعدام القيادة العسكرية الموحدة التي يدين لها الجميع بالطاعة، كانت جيوشاً إقطاعية مشتتة، تفتقر للنظام والترتيب وحسن الإعداد والإلمام الكافي بالتكتيكات العسكرية الصحيحة[١]. ومن المهم أن نشير في هذا المجال إلى دور الحليف البيزنطي والدعم اللوجستي الهائل الذي قدمه الإمبراطور رغبة منه في الاستفادة منهم لتحقيق الأمل الذي ظل يراوده باستعادة أملاك بيزنطية التي سيطر عليها سلاجقة الروم.

وفي بحثنا عن أسباب الهزيمة، نجد أن هناك أخطاء وقع بها السلطان، لا تقل في أهميتها عن الأسباب السابقة. منها تشجيع الدبلوماسية البيزنطية أذكاء نار الخلافات بين الحكام الأتراك في أسيا الصغرى لشق صفوفهم وأضعافهم ليتسنى لها تحقيق هدفها باستعادة الأراضي التي فتحوها إلى حظيرة الإمبراطورية. ويمكن القول أن قلج أرسلان لم ينجح في التصدي لبيزنطة في السياسة مثلما نجح في الحرب، ولعل حادثة مقتل أمير أزمير على يد قلج أرسلان بفعل تلك الدسائس[٢]، تدلل على قصر باعه في السياسة، فقد أساء تقدير الأهمية السياسية والعسكرية لإمارة أزمير في مواجهة بيزنطة، وترتب على هذه الخطوة نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للسلطنة ولعله أدرك مغبة عمله واحتياجه لأمير أزمير حين عبرت الجيوش الصليبية البيزنطية إلى آسيا

(١) سميل، ر.سي: الحروب الصليبية، ترجمة: سامي هاشم، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٦٢، ص٩٦.

(٢) كومنينا: ألِكسياد، ص٣٥١ -٣٥٣.

الصغرى، إذ فقد حليفاً استراتيجياً كان يمكن أن يركن إلى مساعدته بالنظر لخبرته الطويلة في الصراع مع بيزنطة ولو قدر له الإبقاء على هذا الحليف، لأعانه بأسطوله الكبير في اعتراض السفن البيزنطية التي نقلت الجيوش الصليبية من البر الأوروبي إلى البر الأسيوي، ولقطع إمدادات التموين والأسلحة عن الصليبيين. ولأثمر ذلك عن نتائج بالغة الخطورة على مجريات الحروب الصليبية.

وثمة قضية أخرى في هذا المجال تدلل بأن قلج أرسلان لم يكن سياسياً بعيد النظر، ودبلوماسياً حصيفاً، إذ لم يبادر لتفكيك التحالف الصليبي البيزنطي الذي تشكل ضده، وبدون ذلك لا يتحقق النصر ولا يزول الخطر. والصلة بين أقطاب التحالف لا تغري بدوام الثقة والتعاون. وكان قلج يعرف هذا التصدع في صفوف الحلفاء، لكنه لم يجتهد في إبرازه وتوسيع شقته ويستغله لمصلحته، وكان بين يديه من أوراق الضغط ما يعينه على بلوغ مراده. فقد كان الإمبراطور يخشى من الجيوش الصليبية الجرارة التي تمثل خطراً حقيقياً على بيزنطة، وفي هذا السياق تؤكد أبنته كومنينا أنه كان من بين قادة الحملة من يمنون أنفسهم من قديم الزمان بالاستيلاء على الإمبراطورية خاصة عدوه اللدود بوهيموند[1]، وهي بذلك تُشير للعداء المتجذر بين بوهيموند والإمبراطور وما سببه لوالدها من متاعب في البلقان وإيطاليا، وقلج أرسلان مُطلع على ذلك فقد كان ولياً لعهد والده سليمان حين اندلعت تلك

(١) كومنينا: أَلِكسياد، ص٣٩٢.

الحرب. وكان بمقدوره استثمار ذلك بإذكاء الفتنة وإثارة النزاع والتخاصم بين بوهيمند والإمبراطور لفصم عرى التحالف بينهما. كذلك فإنه حين علم بوصول الحشود الصليبية إلى ضواحي القسطنطينية وتصميمهم على اجتياح بلاده لم يقم بإرسال الرسل إلى الإمبراطور لتذكيره باتفاقية الصلح المعقودة بينهما سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م[١]، ويخوفه من مغبة نقض الصلح وما سيلحقه ذلك من ضرر بمصالح الإمبراطورية. كما لم يبادر بالاتصال بقادة الحملة وتخويفهم من نوايا الإمبراطور العدوانية تجاههم. ولا ريب أن ورقة الصراع المذهبي الذي كان محتدماً على أشده بين الكنيسة الشرقية والغربية، كانت ستثمر في تأجيج نار الصراع بينهم، وهي كفيلة بتشتيت شملهم واضعافهم لتحقيق غايته بمنعهم من العبور إلى بلاده، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل. ويبدو أنه أساء تقدير الموقف السياسي والعسكري بين بيزنطة وقادة الحملة، وظن أن تلك الخلافات مستحكمة لا حل لها، وأن بيزنطة لن تسمح لهم بالعبور إلى بلاده، ولو استثمر ورقة الخلافات لتغير مجرى الحملة، إذ أن نجاح الحملة كان مرهوناً بموقف بيزنطة ودعمها لهم، وبدون ذلك الدعم لن تنجز هدفها.

وثمة مسألة أخرى في هذا المجال، تستوقف النظر وهي استعانة قلج أرسلان بقبائل الكومان والبشناق التركية في البلقان والدانوب لموافاته بالتحركات الصليبية صوب بلاده، لكن ليس لدينا في المصادر المعاصرة ما

(١) كومنينا: ألِكسياد، ص٣٥٣.

يشير لمحاولته التنسيق مع هذه القبائل عسكرياً ضد القوات الصليبية التي اخترقت البلقان ومحاولة اعتراض تقدمهم، كما أنه لم ينسق معهم كذلك ضد بيزنطة مثلما فعل أمير أزمير حين تحالف مع البشناق للقيام بعملية عسكرية مشتركة ضد بيزنطة[١]، ولم يغب مثل هذا الاحتمال عن الإمبراطور فكان أشد ما يخشاه أن تباغته هذه القبائل وتهاجم الإمبراطورية، لذلك حين عرض عليه ريموند الصنجيلي تولي قيادة الحملة الصليبية بنفسه، اعتذر مخافة أن يهاجم البشناق والكومان الإمبراطورية[٢]، وأحسب أنه لو نسق عسكرياً مع هذه القبائل ووجههم لشن الغارات سواءً على القوات الصليبية أم على بيزنطة لأربك مخططاتهم، وأوقع بهم خسائر كبيرة.

وثمة مسألة أخرى تجدر الإشارة إليها هنا، وهي أن المصادر التاريخية المعاصرة لم تشر لأية محاولة من جانب السلطان لاعتراض تقدم القوات الصليبية سواءً أكانت قوات الحملة العامة أم الحملة النظامية، ويبدو أن قلج أرسلان الذي وصف بالشجاعة والفطنة[٣]، افتقر لليقظة وسرعة الحركة، لتركه الفرصة للقوات الصليبية التجمع والاستعداد لمهاجمته، فكان عليه حين عبروا البسفور أن يفاجئهم قبل أن يكملوا استعداداتهم وتتكامل حشودهم وأن يرهقهم بالهجمات الخاطفة لإيقاع أكبر قدر من الخسائر في صفوفهم، فيشتت شملهم ويلقي الرعب في قلوبهم، فالهجوم في مثل هذه الأحوال أقوى

(١) للاستزادة يُنظر: كومنينا: ألِكسياد، ص٢٧٧ –٣٢٨.

(٢) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/٢٢٣– ٢٢٤.

(٣) الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ١/٢٣٠.

وسائل الدفاع، وتحطيم قوة الخصم قبل أن تكتمل أفضل من تركها تتجمع ثم الصمود لها.

وأخيراً، فإن الإبقاء على الكيانات المسيحية الأرمنية متقلبة الولاء في جنوب الأناضول كان من الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها الإمارات التركية في الأناضول عامة وسلطنة سلاجقة الروم خاصة. وأحسب أن القوى الأرمينية المبعثرة لم يكن لديها القدرة لمجابهة سلاجقة الروم، وكان على قلج أن يوجه نشاطه شطر تلك الإمارات لتعزيز مكانته السياسية والدينية في المنطقة بتصفيته لتلك الإمارات جنوب الأناضول، الأمر الذي يكسبه سمعة جهادية، فيحظى بدعم وتأييد القوى السياسية الإسلامية في المشرق الإسلامي، بدلاً من الانصراف لتوطيد نفوذه في الشرق واخضاعه للإمارات الإسلامية المستقلة في تلك المناطق، وتوسيع نفوذه في أعالي الجزيرة الفراتية والشام.

وقد كشفت المصادر الصليبية المعاصرة للحملة الأولى عن الدعم اللامحدود الذي قدمته هذه الإمارات للجيوش الصليبية، فقد ساندوا الصليبيين بما قدموه لهم من مُؤن وعتاد وإرشاد(١)، ولم يكن بمقدور القوات الصليبية أن تتابع تقدمها إلى الشام بدون الدعم الكبير الذي قدموه لهم.

***

(١) للاستزادة يُنظر: مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٤٤- ٤٨؛ توديبود: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ص١١٦- ١١٨؛ الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ٢٥٣/١ – ٢٥٥.

الخاتمة:

استهدفت هذه الدراسة تجلية موقف السلطان قلج أرسلان من الحملة الصليبية الأولى، من خلال ما قدمته المصادر الإسلامية والأجنبية من معلومات ساعدت على إبراز وتوضيح ذلك الموقف، وأمكن من خلال الدراسة التوصل لعدد من النتائج نبرزها على النحو التالي:

– تبين من خلال الدراسة أن فترة حكم قلج أرسلان (٤٨٧ – ٥٠٠هـ/١٠٩٤– ١١٠٦م)، مثلت مرحلة انتقالية في تاريخ سلطنة سلاجقة الروم، إذ انتقلت من مرحلة الضعف والتفكك إلى مرحلة الانتعاش والازدهار السياسي والاقتصادي، وفيما يتعلق بالعلاقات بين السلطنة وبيزنطة فإن أهم ما يميزها تصديه لمحاولاتها الرامية إلى استعادة الأقاليم التي فتحها سلاجقة الروم، ومنعها من توطيد نفوذها على الشواطئ الشرقية لبحر مرمرة.

– ظهر من خلال الدراسة أن قلج أرسلان كان منهمكاً في إخضاع الإمارات التركية في الأناضول لنفوذه عندما نما إلى علمه أنباء زحف القوات الصليبية. وبناءً على هذه المعلومات أمر قواته برفع الحصار عن مدينة ملطية ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، والعودة إلى عاصمته لحماية بلاده من الخطر الصليبي الذي أطل برأسه من الغرب الأوروبي.

– أمكن من خلال رواية المؤرخ السرياني ابن العبري تحديد تأريخ محدد للوقت الذي علم به قلج أرسلان أنباء زحف الجيوش الصليبية صوب بلاده، بسنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م.

– أزاحت الدراسة الستار عن الجهات التي أمدت السلطان قلج أرسلان بمعلومات دقيقة عن تحركات الحشود الصليبية الزاحفة صوب منها، ومنها الإمبراطور البيزنطي، وجهاز استخباراته المثير للإعجاب والذي وفر له معلومات في غاية الدقة عن تحركات القوات الصليبية بنشره لشبكة من العيون والجواسيس، واجتذابه لقبائل البشناق والكومان التركية في البلقان لموافاته بتحركات الحشود الصليبية.

– سلطت الدراسة الضوء على الجهود التي بذلها قلج أرسلان لحماية دولته من الخطر الصليبي وقيامه بالكثير من الإعداد والاستعداد وحسن التخطيط لملاقاة العدو الصليبي.

– أمكن من خلال ما قدمته المصادر السريانية واللاتينية المعاصرة تفنيد مزاعم بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين فيما يتعلق بانشغال السلطان قلج أرسلان بمنازعته أمراء الدانشمند السيادة على مدينة ملطية في أرمينية الغربية حين عبرت قوات الحملة الصليبية الأولى مضيق البسفور، واتضح أن هذه المزاعم لا صحة لها وتتنافي مع الواقع التاريخي. وبينت المصادر التاريخية أن قلج أرسلان كان متحصناً في الجبال المجاورة لنيقية منتظراً الفرصة الموائمة لمهاجمة القوات الصليبية لإنقاذ عاصمته من هذا الخطر.

– أحرز قلج أرسلان نصراً مؤزراً على جموع الحملة الصليبية الشعبية وتمكن من إبادتها وتشتيت شملها.

– أميط اللثام من خلال الدراسة عن عناصر الخطة الدفاعية التي رسمها قلج أرسلان لحماية عاصمته من السقوط بأيدي القوات الصليبية. وبنى

خطته الدفاعية على التحصن في الجبال المحيطة بالمدينة لاعتراض زحف القوات الصليبية وقطع خطوط إمداداتهم لإجبارهم على رفع الحصار عن المدينة من جهة ومن جهة أخرى الدفاع عن عاصمته فيما عرف بحرب الحصون. وقد بدا واضحاً من هذه الخطة أن السلطان رأى ضرورة إنهاك العدو وإضعاف قوته، مما يمكن أن ينتج عنه خسائر فادحة في صفوف الأعداء.

– أمكن في ضوء ما قدمته المصادر الأجنبية المعاصرة تصويب بعض الآراء، فيما يتعلق بالعمليات القتالية الهجومية التي نفذها قلج أرسلان ضد القوات الصليبية البيزنطية المحاصرة لنيقية، وبخلاف ما أشارت إليه العديد من الدراسات الأوروبية المعاصرة التي ترى بأن السلطان لم يقم إلا بشن هجومٍ واحدٍ على هذه الحشود وبعدها لم يجرؤ على التفكير بهجوم آخر. تبين أنه خاض ثلاثة معارك شرسة ضد القوات الصليبية، واسفرت المعركة الثالثة التي استمرت لعدة أيام عن هزيمة قلج هزيمة كبيرة.

– تتبعت الدراسة العمليات القتالية التي دارت حول نيقية، وانتهت إلى أن حامية المدينة استبسلت في الدفاع عنها المدينة وفشلت كل الجهود لإسقاطها عنوة وأخيراً أرغمت المدينة على الاستسلام.

– أبانت الدراسة عما بذله قلج أرسلان من جهد لتعويض خسارته أمام نيقية من خلال محاولته التصدي للقوات الصليبية في ضورولیوم لكنه فشل، وتكبد خسائر فادحة في القوة البشرية بسبب تلك الهزيمة، فتدهورت سلطنة سلاجقة الروم تبعا لذلك.

– تبين من خلال الدراسة أن هزيمة قلج أرسلان أمام نيقية وفي ضورولیوم أقنعته بضرورة التحول من استراتيجية المواجهة العسكرية إلى أسلوب جديد اعتمد سياسة الأرض المحروقة لحرمان الجيوش الصليبية من موارد المناطق التي يمرون بها أملاً في إضعاف قدراتهم على المضي قدماً في مشروعهم، الأمر الذي ترتب عليه تكبدهم خسائر فادحة في القوات البشرية أثناء عبورهم آسيا الصغرى.

– خلصت الدراسة إلى تشخيص العوامل التي أدت إلى هزيمة قلج أرسلان، فكان تفكك السلطنة السلجوقية ووقوفها موقف المتفرج السبب الأساسي في الهزيمة، فضلاً عن التفوق العددي الهائل للجيوش الصليبية والبيزنطية على قوات السلاجقة.

* * *

المصادر والمراجع العربية:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، مراجعة: محمد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.
- ابن خلكان، شمس الدين احمد(ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، بيروت، دار صادر،١٩٧٧.
- خواندمير، محمد بن خاوندشاه (ت ٩٠٣هـ): روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة: أحمد عبدالقادر الشاذلي، ط١، القاهرة، الدار المصرية للكتاب، ١٩٨٨م.
- الذهبي، شمس الدين محمد(ت٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد العرقسوسي،ط١١، بيروت، مؤسسة الرسالة،١٩٩٦.
- سبط بن الجوزي، يوسف بن قز أوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان حوادث (٤٩٧ – ٥١٧هـ)، تحقيق: مسفر الغامدي، ط١، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٨٧م.
- العظيمي، محمد بن علي الحلبي (ت ٥٥٦هـ): تاريخ حلب، تحقيق: إبراهيم زعرور، دمشق، د.ت، ١٩٨٤م.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت ٥٥٥هـ): تاريخ أبي يعلى حمزة ابن القلانسي المعروف بذيل تاريخ دمشق، تحقيق: آمدروز، القاهرة، مكتبة المتنبي، د.ت.
- أرشيد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة في الفترة ما بين ٤٣٥- ٥٧٠هـ، عمان، ١٩٨٨.
- سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ط٦، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٦م.
- طقوش، محمد سهيل: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، بيروت، دار النفائس،٢٠٠٢.
- الدويكات، فؤاد عبد الرحيم: العلاقات العسكرية بين سلطنة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية، بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الانسانية، سنة٢٠٢٠،مجلد:٣٨، عدد:١٥٠.
- عصام مصطفى عقلة: المرآة والسلطة في الإسلام الخواتين السلجوقيات أنموذجاً،

بحث منشور في مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، سنة ٢٠٠٧م، مجلد: ٣٤.
- عصام مصطفى عقلة: الناوكية في بلاد الشام دراسة في التسمية والأصل والعلاقة بالغز العراقية وبالدولة السلجوقية، بحث منشور في المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، سنة ٢٠١٢م، مجلد: ٦، العدد: ٢.
- محمد أحمد رمضان: حول وسائل الصراع المسلح الإسلامي الصليبي في العصور الوسطى، بحث منشور في مجلة المستقبل العربي، سنة ١٩٨٧م، مجلد: ١٠، العدد: ١٠٢.
- محمد مرسي الشيخ: حملة بطرس الناسك الصليبية في ضوء كتابات أنا كومنينا، بحث منشور في مجلة كلية العلوم الاجتماعية- جامعة الإمام محمد بن سعود، سنة ١٩٧٨، العدد:٢.

-المصادر الإنجليزية:

- أجيل، ريموند: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين عطية، ط١، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م.
- آخن، ألبرت فون: تاريخ الحملة الصليبية الأولى، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دمشق: الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٠٠٧م.
- توديبود، بطرس: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة: حسين عطية، ط١، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٨م.
- الرهاوي، متى (ت ٥٣٩ هـ): تاريخ متى الرهاوي، ترجمة: محمود الرويضي، عبدالرحيم مصطفى، ط١، أربد، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، ٢٠٠٩م.
- السرياني، مار ميخائيل (ت ٥٩٦هـ): تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة: غريغوريوس شمعون، ط١، حلب، دار ماردين، ١٩٩٦م.
- الشارتري، فوشيه: تاريخ الحملة إلى القدس (١٠٩٥-١١٢٧م)، ترجمة: زياد العسلي، ط١، عمان: دار الشروق، ١٩٩٠م.
- الصوري، وليم: تاريخ الحروب الصليبية: الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٠م.
- ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي (ت ٦٨٥هـ): تاريخ الزمان: ترجمة اسحق أرملة، ط٢، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦م.

- ڤيتالي، أوردريك: التاريخ الكنسي، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دمشق، دار التكوين للطباعة، ٢٠٠٨م.
- ويندوفر، روجر: ورود التاريخ، ترجمة: سهيل زكار، ط١، دمشق، الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية، ٢٠٠٠م.
- مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة: حسن حبشي، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٨م.
- مجهول: تاريخ الرهاوي المجهول، ترجمة: البير أبونا، ط١، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٨٦م.
- كومنينا، أنا (ت ٥٤٨هـ): أَلِكسياد، ترجمة: حسن حبشي، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م.
- بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
- ر.سي. سميل: الحروب الصليبية، ترجمة: سامي هاشم، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٦٢.
- ستيڤن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٩٧م.
- عثمان توران: الأناضول في عهد السلاجقة والإمارات التركمانية، ترجمة: علي محمد الغامدي، ط١، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٩٩٧م.
- لسترانج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: كوركيس عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة،١٩٨٥.
- موستراس، س: المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: عصام الشحادات، بيروت، دار ابن حزم،٢٠٠٢.
- ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة: الياس شاهين، ط١، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م.
- هانز ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: عماد غانم، ط١، طرابلس الغرب، مجمع الفاتح للجامعات، ١٩٩٠م.
- أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: أحمد غسان سبانو، ط١، دمشق، دار قتيبة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م.